سلسلة السيرة النبوية لكل الأعمار :

(9)

غـــــزوة تبوك

إعداد الدكتور

رجب محمود بخيت

دار العلم والإيمان

للنشر والتوزيع

239

ب . ر

رجب محمود بخيت ،.

السيرة النبوية لكل الأعمار(غزوة تبوك) / رجب محمود بخيت.- ط1.- دسوق: دار

العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

128 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .

تدمك : 978 – 977 – 308 – 589 - 6

1. السيرة النبوية .

أ -العنوان .

رقم الإيداع :1972

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman2016@hotmail.com

2018

الفهرس

قائمة المحتويات

ومن الفوائد في هذه القصة :
فوائد الشدائد
الصدق منجاة
العقاب بالهجر
التنظيم الدقيق للمجتمع الإسلامي
الابتلاء بالخير والشر
الولاء التام لله ورسوله
صدق الإخوة في الله
تبشير الرسول ص كعب
تشرع أنواع من العبادات شكراً لله عند النعمة:
سجود الشكر:
مكافأة الذي يحمل البشرى:
التصدق بالمال:
قيام الرسول ص على دفن ذي البجادين ا

معجزات علي طريق الغزوة :
ناقة رسول الله ص:
التحذير من هبوب ريح شديدة
تكثير ماء عين تبوك
تكثير الطعام
أهم نتائج الغزوة :
دروس وعبر من غزوة تبوك:
بعض الوقائع المهمة في العام التاسع الهجري :
وفاة زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول
عام الوفود:
وفد عبد القيس
وفد دَوْس
رسول فَرْوَة بن عمرو الجُذَامي

السرايا والأحداث حتى غزوة تبوك

كان النبي ص قد بعث الطفيل بن عمرو من مقرّه في حنين وقبل أن يسير إلى الطائف، وأمره بأن يهدم «ذي الكفّين» صنم عمرو بن حممة الدوسي، ثم يستمد قومه ويوافيه مع المدد إلى الطائف، وقد نفذ الطفيل بن عمرو أوامر النبي ص فهدم «ذي الكفين» وحرقه وقاد أربعمائة من قومه ومعهم دبابة ومنجنيق مددا لرسول اللّه ص فوصلوا إليه بعد مقدمه الطائف بأربعة أيام (1).

سرية عيينة بن حصن الفزاري

في المحرم سنة 9 هـ إلى بني تميم ، في خمسين فارساً، لم يكن فيهم مهاجري ولا أنصاري، وسببها أنه هـ بعث بشر بن سفيان إلى بني كعب لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بني تميم على ماء فأخذ بشر صدقات بني كعب فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك لم تعطونهم أموالكم فاجتمعوا وأشهروا السلاح ومنعوا بشرا من أخذ الصدقة فقال لهم بنو كعب نحن أسلمنا ولا بد في ديننا من دفع الزكاة فقال لهم بنو تميم والله لا ندع يخرج بعير واحد ولما رأى بشر ا ذلك قدم المدينة وأخبر النبي ص بذلك فعند ذلك بعث رسول الله ص عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم في خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري

1)ابن هشام- السيرة 2/ 385.

فكان يسير الليل ويكمن النهار فهجم عليهم وأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا فجاء بهم إلى المدينة فأمر بهم رسول الله ص فحبسوا في دار رملة بنت الحارث فجاء في أثرهم جماعة من رؤسائهم منهم عطارد ابن حاجب والزبرقان بن بدر والاقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمرو بن الأهتم ورباح بن الحارث فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري فجاءوا إلى باب النبي ص أي بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالا يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله ص بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالا يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله ص فاستبطئوه فجاءوا من وراء الحجرات فنادوا بصوت جاف اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك فإن مدحنا زين وذمنا شين يا محمد اخرج إلينا فخرج رسول الله ص وقد تأذى من صياحهم وأقام بلال ا الصلاة وتعلقوا برسول الله ص يكلمونه فوقف معهم ، قالوا له نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال لهم النبي ص ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا ثم مضى رسول الله ص فصلى الظهر ثم جلس في صحن المسجد بعد أن قالوا : إن مدحنا لزين وإن شتمنا لشين نحن أكرم العرب فقال لهم رسول الله ص كذبتم بل مدح الله عز وجل الزين وشتمه الشين وأكرم منكم يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام ثم قالوا له فائذن لخطيبنا وشاعرنا

قال أذنت فليقم ، فقدموا عطارد بن حاجب فتكلم وخطب ، فأمر رسول الله ص ثابت بن قيس بن شماس ـ خطيب الإسلام ـ فأجابهم، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأنشد مفاخراً، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة .

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس : خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، وأقوالهم أعلى من أقوالنا، ثم أسلموا، فأجازهم رسول اللّه ص ، فأحسن جوائزهم، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم(2)

سرية قطبة بن عامر ا إلى حي من خثعم بناحية تَبَالَة، بالقرب من تُرَبَة في صفر سنة 9 ص.

بعث رسول الله ص قطبه بن عامر في عشرين رجلا إلى حي من خثعم وأمره أن يشن الغارة عليهم فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها فأخذوا رجلا فسألوه فاستعجم عليهم أي سكت ولم يعلمهم بالأمر فجعل يصيح بالحاضر وهم القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرتحلون عنه كما تقدم ويحذرهم فضربوا عنقه ثم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا الغارة عليهم فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت الجرحى في الفريقين وساقوا النعم والشاء إلى المدينة (3).

---

2) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 3/216-221

3) كتاب المغازي للواقدي ، 3/981 ، زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 3/446

سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كِلاَب في ربيع الأول سنة9هـ.

في شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة أرسل رسول الله جيشا إلى القرطاء عليهم الضحاك بن أبي بكر الكلابي وكان من الشجعان الأبطال ومعه الأصيد بن سلمة بن قرط فلقوهم بالزج زج لاوة (4) فدعوهم إلى الإسلام فأبوا فقاتلوهم فهزموهم وغنم أموالهم فلحق الأصيد أباه سلمة وسلمة على فرس له في غدير بالزج فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان فسبه وسب دينة فضرب الأصيد عرقوبي فرس أبيه فلما وقع الفرس على عرقوبيه ارتكز سلمة على رمحه في الماءثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله ولم يقتله ابنه (5)

سرية علقمة بن مجزز

ثم بلغ رسول الله أن جمعًا من الحبشة رآهم أهل جُدَّةَ في مراكبهم يريدون الإغارة عليهم، فأرسل لهم علقمة بن مُجَزِّز في ثلاث مئة، فذهب حتى وصل جُدَّةَ ونزل في المراكب ليدركهم، وكان الأحباش متحصنين في جزيرة هناك، فلما رأوا المسلمون يريدون هربوا، ولم يلقَ المسلمون كيدًا، فرجع علقمة بمن معه(6).

---

4) موضع بنجد

5)عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير، 229/2 ، زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 450/3 ، الطبقات الكبرى ، 162/2

6) طبقات ابن سعد،2 / 163.

إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر:

كان الرسول ص قد أهدر دم كعب بن زهير في أعقاب هجوه لأخيه بجير بقصيدة عرّض فيها بالرسول ص وبأبي بكر ا (7)، فكتب إليه أخوه محذرا وحثه علي القدوم وقد سمع كعب نصيحة أخيه بجير التي ضمنها قصيدته التي جاء فيها قوله:

إلى اللّه لا العزى ولا اللات وحده   فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

فأسلم وقدم على النبي ص فأمنه، فأنشده قصيدته المشهورة «بانت سعاد» التي ألقاها في المسجد على مسامع النبي ص وأصحابه وهي قصيدة طويلة نقل منها ابن هشام أكثر من خمسين بيتا فيها اعتذار وإقرار بالخطأ ومديح ودفاع عن الرسول ص ودينه ورد فيها قوله:

نبئت أن رسول اللّه أوعدني   والعفو عند رسول اللّه مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك   نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

7) ابن هشام- السيرة 4/ 201، الذهبي- المغازي ص 618- 216، البيهقي- دلائل النبوة 5/ 207.

لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويل

وقد سر النبي ص ذلك، وحين بلغ قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به مهنّد من سيوف اللّه مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

أشار النبي ص بكمه إلى الناس ليأتوا ويسمعوا منه، ورمى على كعب بردة كانت عليه (8)وهي التي صارت إلى الخلفاء(9)، قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه فالله أعلم(10).

ويقال إن الرسول - ص - قال له بعد ذلك لولا ذكرت الأنصار بخير، فإن الأنصار لذلك أهل(11)، فقال:

---

8) ابن هشام- السيرة 4/ 201

9) السيرة النبوية لأبي شهبة(487/2).

10) البداية والنهاية (373/4).

11) البداية والنهاية (373/4).

من سرّه كرمُ الحياة فلا يزل في مِقْنَب من صالحي الأنصار(12)

ورثوا المكارم كابراً عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار

المُكرهين السّمْهريّ بأذرع كسوالف الهندي غير قصار(13)

والناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليلة الأبصار

والبائعين نفوسهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكرار

يتطهرون يرونه نُسكا لهم بدماء من علقوا من الكفار

---

12) المنقب: الجماعة من الخيل. يريد به القوم على ظهور جيادهم.

13) السمهري: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السيف.

إلى أن قال:

لو يعلم الأقوام علميَ كلَّه فيهم لصدَّقني الذي أماري(14)

قوم إذا خَوتِ النجوم فإنهم للطارقين(15) النَّازلين مقاري(16)

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب وعبد الله ابن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكة(17).

14) أماري: أجادل.
15) خوت النجوم: أي سقطت، الطارقون الذين يأتون بالليل.
16) ابن هشام- السيرة 4/ 201
17) معين السيرة، ص433،432،431.

سرية عبد اللّه بن حذافة السهمي:

عن علي بن أبي طالب قال: استعمل النبي ص رجلا من الأنصار يرجح أن يكون عبد اللّه بن حذافة السهمي (18)، على سرية وأمرهم أن يطيعوه، فأغضبوه في شيء، فأمرهم فأوقدوا نارا، ثم ذكرهم بأمر النبي ص لهم بالسمع والطاعةله، وأمرهم أن يدخلوا النار التي أوقدوها، فامتنعوا وقالوا: «إنما فررنا إلى رسول اللّه ص من النار» وحين علم النبي ص بالأمر قال «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنّما الطّاعة في المعروف»(19). وقد روى الشيخان أن الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [سورة النساء: الآية 59] قد نزلت فيه عندما أرسله النبي ص في السرية (20).

18) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث 4584)، مسلم- الصحيح 3/ 1465، (الحديث 1834)، أحمد- المسند 3/ 67، وانظر صحيح سنن ابن ماجه للألباني 2/ 142 (حديث 2863) والحاكم- المستدرك 3/ 630- 1.

19) البخاري- الصحيح (فتح الباري حديث 7145)، مسلم- الصحيح 3/ 1469، كتاب الإمارة، (الحديث 1840).

20) خالف ذلك الحافظ ابن كثير (التفسير 2/ 303) والطبري (التفسير 8/ 498- 9) وقالا إنها إنما نزلت في خالد بن الوليد، وقالا إن الآية في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء، وذكر الواقدي في المغازي (3/ 983) وتابعه ابن سعد في الطبقات (2/ 163) أنها نزلت في علقمة بن محرز حين بعثه النبي هفي سرية لرد الأحباش عن جدة.

ويستفاد من هذا الموقف ما يأتي :

إن الطاعة العمياء والاستجابة المطلقة للحكام لا تقل ضرراً وفساداً عما يضادها من الطيش والفوضى دون طاعة لحاكم أو أمير .

أنه لا طاعة مطلقة إلا للرسل عليهم السلام فليس من المخلوقين من أمره حتم بإطلاق إلا الرسل عليهم السلام .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "من نصب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً اعتقاداً أو حالاً فقد ضل في ذلك كأئمة الضلال الرافضة الإمامية ؛حيث جعلوا في كل وقت إماماً معصوماً تجب طاعته ، فإنه لا معصوم بعد الرسول ، ولا تجب طاعة أحد بعده في كل شيء" (21) .

أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، كما في حدث سرية عبد الله بن حذافة ا عندما أمر أصحابه بأن يوقدوا ناراً ويدخلوها ؛ فلما بلغ ذلك النبي ص قال : لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً ؛ إنما الطاعة في المعروف (22) .

---

21) الفتاوى ، 69/19 .

22) رواه البخاري ، ح/ 7145 .

ومما قاله ابن القيم في شأن تلك الحادثة : "وإن كانوا مطيعين لولي الأمر فلم تدفعهم طاعتهم لولي الأمر معصيتهم لله ورسوله ؛ لأنهم قد علموا أن من قتل نفسه فهو مستحق للوعيد ؛ فإذا كان هذا حكم من عذب نفسه طاعة لولي الأمر ، فكيف من عذّب مسلماً لا يجوز تعذيبه طاعة لولي الأمر" .

وأيضاً فإذا كان الصحابة المذكورون لو دخلوها لما خرجوا منها مع قصدهم طاعة الله ورسوله بذلك الدخول ، فكيف بمن حمله على ما لا يجوز من الطاعة الرغبةُ والرهبة الدنيوية ؟ (23) .

سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم الفُلس في بلاد طئ:

وفي ربيع الآخر خرجت سرية علي بن أبي طالب إلى الفُلس -صنم لطئ- ليهدمه وكان تعدادها خمسين ومائة رجل من الأنصار، على مائة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء، ولواء أبيض، فشنّوا الغارة على محلة آل حاتم- حاتم الطائي الذي ضرب المثل بجودة- مع الفجر فهدموا الفُلس وخربوه، وملأوا أيديهم من السّبي والنَّعَم والشَّاء وفي السبي أخت عدي بن حاتم سَفَّانةُ بنت حاتم طيّئ. وهرب عدي إلى الشام(24).

23) زاد المعاد ، 69/3 .
24) تاريخ الاسلام للذهبي، المغازي، ص624.

ولما رجع علي إلى المدينة طلبت سفَّانة من رسول الله أن يَمُنَّ عليها، فأجابها لأنه كان من سنته ﻫ أن يكرم الكرام، فدعت له، وكان من دعائها: شكرتْكَ يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتكَ يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سببَا لردّها عليه.

وقيل: أنها قالت له ﻫ يا محمد أرأيت أن تمن علي ولا تفضحني في قومي فإني بنت سيدهم إن أبي كان يطعم الطعام ويحفظ الجوار ويرعى الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العريان ولم يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم الطائي فقال لها ﻫ هذه مكارم الأخلاق حقا ولو كان أبوك مسلما لترحمت عليه خلوا عنها فإن أباها يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق (25).

وكانت هذه المعاملة من رسول الله سببَا في إسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي الذي كان فرّ إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده، وكانمن حديث مجيئه أن أخته توجهت إليه بالشام، وأخبرته بما عُوملتبه من الكرم، فقال لها: ما ترين في أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى أن تلحق به سريعًا، فإن يكن نبيّا فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكًا فأنت أنت. قال: والله هذا هو الرأي(26).

---

25) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 224/3

26) طبقات ابن سعد: 2 / 164، دلائل النبوة: 5 /340 وما بعدها.

فخرج حتى جاء المدينة، ولقي رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام:"من الرجل؟" قال: عدي بن حاتم، فأخذه إلى بيته، وبينما هما يمشيان إذ لقيت رسول الله امرأة عجوز، فاستوقفته، فوقف لها طويلا تُكَلمه في حاجتها، فقال عدي: والله ما هو بملك. ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وِسادةمن جلد محشوة ليفًا فقدّمها إلى عدي، وقال: "اجلسّ على هذه" . فقال: بل أنت تجلس عليها، فامتنع عليه الصلاة والسلام وأعطاها له، وجلس هو على الأرض، ثم قال: "يا عدي، أسلم، تسلم" قالها ثلاثًا، فقال عدي: إني على دين، وكان نصرانيّا. فقال له عليه الصلاة والسلام: "أنا أعلم بدينك منك" فقال عدي: أأنت أعلم بديني منّي؟ قال: "نعم" . ثم عدّد له أشياء كان يفعلها إتباعا لقواعد العرب وليستمن دين المسيح في شيء كأخذه الرباع وهو ربع الغنائم. ثم قال: "يا عدي، إنما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى، تقول: إنما اتَّبعه ضعفه الناس ومن لا قدرة لهم، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله، ليوشكَنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد مَنْ يأخذه، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحِيْرة؟" قال: لم أرها وقد سمعت بها، قال: "

فوالله ليتمّنَّ هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله، ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم" . فأسلم عدي ا وعاش حتى رأى كل ذلك (27).

وفي هذه القصة دروس وعبر كثيرة منها:

كان عدي وهو مقبل على رسول الله يحمل في تصوره أنه أحد رجلين إما نبي، أو ملك، فلما رأى وقوف رسول الله مع المرأة الضعيفة الكبيرة مدة طويلة شعر بخلق التواضع وانسلخ من ذهنه عامل الملك، واستقر في تصوره عامل النبوة.

كان النبي - ص - موفقاً حينما انتقد عدياً في مخالفته للدين الذي يعتنقه، حيث حصل لعدي اليقين بنبوة رسول الله - ص - الذي يعلم من دينه مالا يعلمه الناس من حوله.

لما ظهر للنبي أن عدياً قد أيقن بنبوته تحدث عن العوائق التي تحول بين بعض الناس وإتباع الحق حتى مع معرفتهم بأنه حق، ومنها ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم،

---

27) دلائل النبوة ، 5 / 337 وما بعدها.

وما هم فيه من الفقر فأبان له النبي - ص - بأن الأمن سيشمل البلاد حتى تخرج المرأة من العراق إلى مكة من غير أن تحتاج إلى حماية أحد، وأن دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين، وأن المال سيفيض حتى لا يقبله أحد، فلما زالت عن عدي هذه المعوقات أسلم.

كان النبي - ص - موفقاً في دعوته حيث كان خبيراً بأدواء النفوس ودوائها، ومواطن الضعف فيها وأزمّة قيادها، فكان يلاءم كل إنسان بما يلاءم علمه وفكره وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه ولذلك أثر في زعماء القبائل ودخل الناس في دين الله أفواجاً(28).

وجد عدي سمات النبوة الصادقة في مظهر معيشته - ق - وحياته، ووجد هذه السمات أيضاً في لون حديثه وكلامه ووجد مصداق ذلك فيما بعد،في وقائع الزمن والتاريخ، فكان ذلك سبب في إسلامه وزيادة يقينه وانخلاعه عن زخارف الحياة الدنيا ومظاهر الأبهة والترف التي كان قد أسبغها عليه قومه(29).

---

28) التاريخ الاسلامي (58،86/8).
29) فقه السيرة للبوطي، ص321.

غزوة تبوك(30):"جيش العسرة ":

اشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكان عين تبوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روي بسنده إلى معاذ أن رسول الله ص قال: "ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكملن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي "(31).

وللغزوة اسم آخر، وهو: غزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة، قال تعالى:

لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [سورة التوبة:117]وقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ص أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك..، وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: "باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة"(32).

---

30) تبوك فيقع شمال الحجاز، يبعد عن المدينة 778 ميلاً حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك ، أنظر : المجتمع الإسلامي للعمري، ص229.

31) صحيح مسلم (1784/4) رقم 706.

32) البخاري (150/5) رقم 4415.

وسميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًّا لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه(33)، حتى أن الفاروق عمر بن الخطاب كان يقول: خرجنا مع رسول الله ص إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه وبضعه على بطنه(34).

كما تسمي الغزوة باسم الفاضحة، وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائيةالماكرة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين(35).

---

33) الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، ص83.
34) مجمع الزوائد ، 194/6.
35) شرح المواهب اللدنية ، 62/3، الصرع مع الصليبيين، ص84.

أسباب الغزوة :

هناك أسباب غير مباشرة لغزوة تبوك تتمثل في أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بجهاد أهل الكتاب، كما أمرهم بجهاد المشركين، وخلافا لما حصل مع المشركين الذين لا يقبل منهم إلا الدخول في الإسلام أو أن يأذنوا بقتال، فإن أهل الكتاب لهم حق الاحتفاظ بدينهم إذا ما اعترفوا بالسيادة لدولة الإسلام وأدّوا الجزية عن يد وهم صاغرون. قال تعالى قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ [سورة التوبة:29]:وهكذا فقد كانت غزوة تبوك استجابة إيمانية لفريضة الجهاد حيث كان الروم أقرب الناس إلى ديار الإسلام ولذلك فإنهم أولى الناس بالدعوة. (36) وقد قال تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [سورة التوبة:123] (37)

---

36) يقول الحافظ ابن حجر «فعزم رســـول الله ص على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة لقربهم إلى الإسلام وأهله» أنظر ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، 2/ 5 .

37) الطبري ، التفسير ، 11/ 71.

فبعد القضاء على الوثنية في جزيرة العرب، وإجلاء يهود من المدينةوغيرها، كان على المسلمين أن يقاتلوا أهل الكتاب من النصارى الذين كانوا يقطنون على المشارف الشمالية الغربية من جزيرة العرب، حيث كانت المنطقة التي توجه إليها الرسول في هذه الغزوة من ديار قضاعة وهي خاضعة لسلطان الإمبراطورية البيزنطية (الروم) (38).

وهناك أسباب مباشرة دعت النبي ص بالتعجيل والقيام بهذه الغزوة ، وتمثلت في الأنباء التي وصلت للنبي ص من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهممن مستنصرة العرب، وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء(39)فأراد النبي ص أن يغزوهم قبل أن يغزوه(40). وكانت الأنباء تترامي إلى المدينة بإعداد الرومان ؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتاً غير معتادإلا ويظنونه زحف الرومان . ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبي ص آلى من نسائه شهراً في هذه السنة ـ 9هـ ـ وكان هجرهن واعتزل عنه نفي مشربة له ، ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته،

---

38) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، 1 /387

39) البلقاء: هي كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى عاصمتها عمان.

40) الطبقات الكبرى لابن سعد ، 165/2 .

فظنوا أن النبي ص طلقهن، فسري فيهم الهم والحزن والقلق . يقول عمر بن الخطاب ـ وهو يروي هذه القصة : وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر ـ وكانا يسكنان في عوالى المدينة، يتناوبان إلى النبي ص ـ ونحن نتخو ف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال : افتح، افتح، فقلت : جاء الغساني ؟ فقال : بل أشد من ذلك، اعتزل رسول اللّه ص أزواجه . . . "(41)

وفي لفظ آخر ـ أنه قال ـ : وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نَوْبَتِهِ، فرجع عشاء، فضرب بابي ضرباً شديداً وقال : أنائم هو ؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال : حدث أمر عظيم . فقلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول، طلق رسول اللّه ص نساءه . . (42).وهذا يدل على خطورة الموقف، الذي كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان، ويزيد ذلك تأكداً ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول اللّه ص في كل الميادين، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض، بل يذيب كل ما يعترض في طريقه من عوائق ـ برغم هذا كله ـ طفق هؤلاء المنافقون يأملون في تحقق ما كانوا يخفونه في صدورهم، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله .

---

41) البخاري، الفتح، 8 (4913).
42) البخاري، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته ،180/6 ، رقم 5191.

ونظراً إلى قرب تحقق آمالهم أنشئوا وكرة للدس والتآمر، في صورة مسجد، وهو مسجد الضِّرَار، أسسوه كفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب اللّه ورسوله، وعرضوا على رسول اللّه ص أن يصلي فيه، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين فلا يفطنوا ما يؤتي به في هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهمفي الخارج، ولكن رسول اللّه ص أخر الصلاة فيه ـ إلى قفوله من الغزوة ـ لشغله بالجهاز، ففشلوا في مرامهم وفضحهم اللّه، حتى قام الرسول ص بهدم المسجد بعد القفول من الغزو، بدل أن يصلي فيه . (43).

الإنفاق في هذه الغزوة وحرص المؤمنين على الجهاد ومواقف المنافقين :

ثم دعا النبي ص الصحابة إلى الإنفاق على هذه الغزوة نظرا لكثرة المشاركين فيها، وبعد المسافة التي كان على الجيش أن يقطعها، ووعد المنفقين بعظيم الأجر من اللّه سبحانه وتعالى، فسارع أغلب الصحابة إلى المشاركة في توفير الأموال المطلوبة كل حسب مقدرته،

43) الرحيق المختوم ، ص419

وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش العسرة استجابة لقول النبي ص «من جهّز جيش العسرة فله الجنّة»(44)، فيقول عبد الرحمن بن حُباب: شهدت النبي - ص - وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليّ مائة بعير (45) بأحلاسها(46) وأقتابها (47) في سبيل الله، ثم حضّ (48) على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول:ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه(49).وعن عبد الرحمن بن سمرة ب قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبيق بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ص جيش العسرة، قال: فجعل النبي ص يقلبها بيده ويقول: ماضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم يرددها مراراً(50).

44) البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب عثمان (243/4).
45) البعير : ما صلح للركوب والحمل من الإبل ، وذلك إذا استكمل أربع سنوات ، ويقال للجمل والناقة
46) الحِلْسُ ، بالكسْرِ : كُلُّ شيءٍ وَلِيَ ظهرَ البعيرِ والدَّابَّةِ تحتَ الرَّحْلِ والسَّرْجِ
47) القتب : هو الرحل الذي يوضع حول سنام البعير تحت الراكب هو بمنزلَةِ المِرْشَحَةِ تكون تحتَ اللِّبْدِ .
أنظر ، تاج العروس من جواهر القاموس ، 546/15
48) الحض : الحثُّ بقوة
49) سنن الترمذي، مناقب (625/5-626) رقم 3700.
50) سنن الترمذي، المناقب (626/5) رقم 3702؛ مسند أحمد (63/5).

وأما عمر فقد تصدق بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك ، وهذا الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله ص يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ص: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر ا بكل ما عنده، فقال له رسول الله ص: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً(51). وروي أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة(52).وكانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة، كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي ي (53).

وفي مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين في نفوس الناس غرساً كريماً(54).

51) سنن ابي داود، الزكاة (2/312-313) رقم 1678.
52) السيرة في ضوء المصادر الأصلية، ص616.
53) مغازي الواقدي ، 3/391.
54) السباعي،السيرة النبوية دروس وعبر، ص161.

ولا شك في أن عددا آخر من الصحابة قد ساهموا في تغطية بقية النفقات كل على قدر طاقته، والدليل على ذلك أن فقراء المسلمين قدموا ما قدروا عليهمن النفقة، رغم بساطته وقلته، على استحياء منهم فقد جاء أحدهم بصاع من تمر، وجاء آخر بنصف صاع منه، مما عرضهم لسخرية ولمز المنافقين، فأنزل اللّه تعالى قوله الكريم: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [سورة التوبة:79].

وقالوا: ما أعطى بن عوف هذا إلا رياء، فكانوا يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء.(55) ولقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد فهذا عُلَبَة بن زيد أحد البكائين صلى من الليل وبكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابتني بها في جسد أو عرض، ثم أصبحمع الناس، فقال رسول الله - ص - " أين المتصدق هذه الليلة " فلم يقم أحد، ثم قال: " أين المتصدق فليقم " فقام إليه فاخبره، فقال رسول الله - ص -: " أبشر، فو الذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة ". (56).

---

55) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص616-617

56) زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 463/3 ، العمري، المجتمع المدني ، ص235.

فهذه إشارات مهمة..فالفاقة ليست عُذراً للتخلّف عن ركب السائرين، ولا القعود عن مشاركة العاملين، بل الاحتجاج بالفقر والتعذّر به عن خدمة هذا الدين ذنب يُضاف إلى ذنوب صاحب العُذر. وفي هذه القصة وما جرى فيها آيات من الإخلاص، وحب الجهاد لنصرة دين الله وبثّ دعوته في الآفاق وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنين الذين يعيشونفي حياتهم عيشة عملية(57). وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدثنا عن قصته: ... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي، فأقبلت -وقد خرج أول صحابة رسول الله ص طفقت في المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه فإذا شيخ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحمله(58)عقبة، وطعامه معنا؟ فقلت: نعم، قال فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا(59)، فأصابني قلائص(60)، فسقتهن حتى أتيته، فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات ثم قال: سقهن مقبلات، فقال: ما أرى قلائصك إلا كراماً: إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي، فغير سهمك أردنا(61).

---

57) صادق عرجون ، محمد رسول الله، ص 443/4.

58) عقبة: أي بالتعاقب.

59) كان واثلة بن الاسقع أحد أفراد سرية خالد بن الوليد في دومة الجندل.

60) قلائص: إبل.

61) أبي داود في سننه، 3/ 56 ، حديث رقم 2676 ، الطبراني في معجمه الكبير،81/22 ، حديث رقم 196

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخروية، أجراً وثواباً يجده عند الله يوم لقائه، وتنازل الأنصاري عن قسم كبير من راحته ليتعاقب وواثلة على راحلته ويقدم له الطعام مقابل سهم آخر هو الأجر والثواب.

إنها مفاهيم تنبع من المجتمع الذي تربى على كتاب الله وسنة رسوله، لها نفس الخاصية في الإضاءة وتحمل نفس البريق، متمم بعضها لبعضها الآخر(62).

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري يطلبون من النبي ص أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد فلم يجد ما يحملهم عليهحتى مضى بعض الوقت فحصل لهم على ثلاثة من الإبل(63).وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد وتحرجاً من القعود حتى نزل فيهم قرآن: لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (92) ۞ [سورة التوبة: 92 ،91]

62) معين السيرة، ص453.
63) المجتمع المدني، ص236.

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد رسول الله، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباته، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين(64)وهم الذين عناهم رسول الله - ص - عندما قال: "إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر "(65).

موقف المنافقين من غزوة تبوك :

عندما أعلن الرسول - ص - النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، ظهر المنافقون بوجههم الحقيقي ، فلما أرسل النبي ص إلى القبائل يستنفرها بالخروج مع الجيش الإسلامي من المدينة إلى تبوك وقد أشار القرآن الكريمإلى إعلان النفير فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ [سورة التوبة:38].

64) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص618.
65) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4433.

وكان النفير المعلن أمرا واجبا على الجميع تنفيذه والالتزام به؛ فقد طالبهم القرآن الكريم أن ينفروا شبابا وشيوخا أغنياء وفقراء وأن يكونجهادهم جميعا بالأموال والأنفس، فقال تعالى: انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [سورة التوبة:41]. ولما أن أمر الرسول ص أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم كان ذلك في زمانمن عسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة: لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42) [سورة التوبة:42] (66). وكان رسول اللّه ص قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها ويخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بيّنها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم» (67).

66) الطبري- تفسير 14/ 272

67) ابن هشام- السيرة 3/ 516.

ولقد نجم النفاق في المدينة واستعلن بشأن هذه الغزوة، «وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكّا في الحق وإرجافا برسول اللّه ص »(68)، فأنزل اللّه تعالى فيهم: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) [سورة التوبة:81،82]

وحين عرض النبي ص على الجد بن قيس أحد بني سلمة المشاركة في جهاد الروم، اعتذر عن ذلك تحت ستار الخوف من الفتنة بسبب شدة ولعه بالنساء وقال: «وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر»، فأعرض عنه رسول اللّه ص وقال: قد أذنت لك»، وفيه نزلت الآية: وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ [سورة التوبة:49].وكما اعتذر الجد بن قيس كذبا ونفاقا، فقد بادر عدد من المنافقين إلى تقديم أعذار كاذبة للنبي ص لكي يأذن لهم بالتخلف عن الغزوة، ولذلك نزلت الآية

---

68) ابن هشام- السيرة 3/ 517.

عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ [سورة التوبة:43].لم يقتصر النفاق على من نافق من أهل المدينة بل إنه امتد إلى البادية حولها، قال تعالى: وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ [سورة التوبة:101]وحيث إن المنافقين من الأعراب، وهم أقسى قلوبا وأكثر جفوة وأقل علما بالأحكام والسنن، فإنهم أشد كفرا ونفاقا من منافقي أهل المدينة، كما وصفهم القرآن الكريم: عْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [سورة التوبة:97] لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين ولم يعد هناك أي مجال للتسترّعلى المنافقين أو مجاملتهم بل أصبحت مجابهتهم أمرا ملحا بعد أن عملوا كل ما في وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه اللّه تعالى والرسول ص والذي نزل به القرآن الكريم، بل أصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدهم واجبا شرعيا. فحين بلغ النبي ص أن أعدادا من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلهم اليهودي يثبطون الناس عن الغزوة، أرسل النبي ص إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم (69).

69) ابن هشام، السيرة، 4/ 217- 218

وهذا يدل على مراقبة المسلمين الدقيقة ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المسلمين يقظة تراقب تحركات اليهود والمنافقين واجتماعاتهم وأوكارهم، بل كانوا يطلعون فيها على أدق أسرارهم واجتماعاتهم وما يدور فيها من حبك المؤامرات وابتكار أساليب التثبيط واختلاف الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة وأوكارها حازماً حاسماً، إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين، وأرسل من أصحابه من ينفذه ونفذ بحزم وهذا منهج نبوي كريم يتعلم منه كل مسئول في كل زمان ومكان كيف يقف من دعاة الفتنة ومراكز الإشاعات المضللة التي تلحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول لأن التردد في مثل هذه الأمور يعرض الأمن والأمانإلى الخطر وينذر بزوالها(70).

وحين ابتنى المنافقون مسجدا لهم ليجتمعوا فيه مكايدة للمسلمين وتفريقا لاجتماعهم ووحدتهم وطلبوا من النبي ص أن يصلي فيه، نهاه اللّه تعالى عن ذلك وسماه (مسجدا ضرارا)

70) الصراع مع الصلبيين، ص121.

فقال جل شأنه: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) [سورة التوبة:107،108]. (71) وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم اللّه تعالى (72).وهكذا فقد تخلف عن هذه الغزوة كثير من الأعراب والمنافقين، وعدد قليلمن الصحابة من أهل الأعذار، وثلاثة من الصحابة تخلفوا دون أن يكون لهم عذر (73).

إعلان النفير وتعبئة الجيش :

سارع المؤمنون إلى الالتحاق بهذه الغزوة التي كشف النبي ص عن وجهتها كما أسلفنا لكي يستعدوا لذلك، ولم يهابوا المشاق التي تنتظرهم بسبب بعد المسافة والحر الشديد وقلة المئونة، كما لم تفتنهم طيبات الحياة الدنيا ورغد العيش والأمن الذي يوفره لهم البقاء في المدينة.

71) الطبري، التفسير، 14/ 468- 475.
72) ابن هشام، السيرة، 3/ 518.
73) وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وسوف يرد تفصيل أمرهم فيما بعد .

ولما خرج رسول اللّه ص بجيشه من المدينة ضرب معسكره بالجرف عند ثنية الوداع لكي يتلاحق أفراد الجيش به (74)، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري (75)، وخلف على أهله علي بن أبي طالب ا حيث أمره بالإقامة فيهم. وقد أرجف به المنافقون وقالوا «ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه»،ليشيعوا الفرقة والفتنة بين النبي ص وخاصة أصحابه وأهل بيته ، وقد أحزن ذلك علياً وأدخل الغم على نفسه لما بلغه ذلك فأخذ عليّ سلاحه وخرج من المدينة حتى أتى رسول اللّه ص وهو نازل بالجرف، فأخبره بما قاله المنافقون عنه (76)، وقال: يا رسول اللّه تخلفني في النساء والصبيان؟، وقد كذّب النبي ص مقولة المنافقين وقال لعلي: «ولكنّي خلّفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا إنّه لا نبيّ بعدي» (77)فرجع علي إلى المدينة(78).

---

74) البخاري، الصحيح ، الفتح حديث 4416 ، مسلم، الصحيح، 1870- 1871 ، حديث 2404 .

75) ابن هشام، السيرة، 3/ 519

76) ابن هشام، السيرة، 3/ 519- 520.

77) وردت الحادثة، في البخاري- الصحيح 5/ 7، وفي مواضع أخرى منه، كما أوردها مسلم في صحيحه ، 7/ 120- 121 مع بعض التعديل لبعض المفردات، فقد جاء فيه: «أما ترضـــى» بدلا من «أفلا»، وأسقط اسم علي من وسط الحديث. وانظر: أحمد، فضائل الصحابة.

78) زاد المعاد، 530/3 ، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، 1 /390

وكان استخلاف علي - ا - في أهله باعتبار قرابته ومصاهرته، فكان استخلافه في أمر خاص، وهو القيام بشأن أهله، وكان استخلاف محمد بن مسلمة الأنصاري في الغزوة نفسها استخلافًا عامّا، فتعلق بعض الناس بأن استخلاف علي يشير إلى خلافته من بعده، ولا صحة لهذا القول؛ لأن خلافته كانت في أهله خاصة(79).

فلما خرج رسول الله- ص - ضرب عسكره ثنية الوداع وضرب عبد الله بن أبي ومن معه على جده عسكره أسفل منه، نحو ذباب(80)، وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب(81).وأراد أن يوهن قلوب المؤمنين فرجع قائلا: "يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب ؟ وقال: واللّه لكأني أنظر إلى أصحابه غدا مقرنين في الحبال"(82).

79) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص466، 467.
80) جبل قرب المدينة.
81) ابن هشام، السيرة، 3/ 519.
82) انظر: المقريزي، إمتاع الأسماع، 1 / 450، ابن هشام، السيرة النبوية، 2 / 525.

وهذا الفعل ليس بغريب عليهم، فقد سبق أن فعلوه في غزوة أحد كما هو معلوم. خرج الرسول ص على طريق التصميم والجهاد وحوله المسلمون في ثلاثين ألف جندي (83)، وكان معهم عشرة آلاف فرس (84)، وكان لواء الجيش الأعظم إلى أبي بكر الصديق، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام - ا - وراية الأوس إلى أسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى أبي دجانة، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواء(85)، واستعمل رسول الله ص على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عباد بن بشر، فكان - ا - يطوف في أصحابه على العسكر(86)، وكان دليل رسول الله في هذه الغزوة علقمة بن الفغواء الخزاعي، فقد كان من أصحاب الخبرة والكفاءة في معرفة طريق تبوك(87).وقد سلك الجيش طريق الشام وفي الطريق إلى تبوك لحق بالجيش أبو خيثمة مالك بن قيس وكان من الأنصار بعد أن كان تخلف بالمدينة (88)، وكان من قصته أنه رجع بعد أن سار رسول الله ص أيامًا إلى أهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه(89)

83) البخاري، الصحيح ،فتح الباري، 8/ 113، مسلم، الصحيح، 8/ 112 (حديث 2769)، ابن حجر ، فتح الباري، 8/ 118، وما ورد لا يتعارض مع ما أورده ابن إسحاق والواقدي.
84) الواقدي، المغازي، 3/ 996 ،برواية زيد بن ثابت، ابن سعد، الطبقات، 2/ 166.
85) المغازي ،996/3، الطبقات الكبرى لابن سعد، 166/2.
86) سبل الهدى والرشاد ،652/5، الصراع مع الصليبيين، ص99.
87) إمتاع الأسماع ،451/1، شرح المواهب اللدنية ،72/3.
88) الحاكم، المستدرك، 3/ 50- 51، والذهبي، ميزان، 1/ 306، ابن كثير، البداية، 5/ 10- 11،
89) حائطه: أي بستانه.

قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، فقال: رسول الله ص في الضح(90)والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناءفي ماله مقيم؟! ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكماحتى ألحق برسول الله ص ، فهيئا لي زادًا، ففعلتا ثم قدم ناضحه(91) فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ص حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله ص ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ص ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ص وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ص: «كن أبا خيثمة»، فقالوا: يا رسول الله، هو - والله- أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ص فقال له رسول الله ص: «أولى لك(92)يا أبا خيثمة»، ثم أخبر رسول الله ص الخبر، فقال له رسول الله ص خيرًا، ودعا له بخير(93).

---

90) الضح: أي في الشمس.
91) ناضحه: أي جمله.
92) أجدر بك.
93) الحاكم، المستدرك، 3/ 50- 51، والذهبي، ميزان، 1/ 306، ابن كثير، البداية، 5/ 10- 11، البداية والنهاية ،8/5

لقد أبصر أبو خيثمة - ا - بعين العقل وتذكر وتيقظ ضميره وحاسب نفسه، عندما رأى ما أعدت له زوجتاه من الماء البارد والطعام مع الظل المبرد والإقامة، وتذكر رسول الله ص وما هو فيه من التعرض للشمس والريح والحر، فشعر بالذنب وتيقظ ضميره فخرج يقطع الفيافي والقفار حتى وصلإلى النبي ص في تبوك وحصل على رضاه وسروره(94).

ولما وصل أبو خيثمة إلي النبي ص وأقر بذنبه ، عاتبه، ق معاتبة تحمل في طياتها اللوم والتأنيب والتهديد، إذ قال له رسول الله ص: «أولى لك يا أبا خيثمة» فهي كلمة فيها معنى التهديد، ومعناها: دنوت من الهلكة.

إنه مما لا شك فيه أن هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجندي، إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذنب.

وهذا منهج نبوي كريم في تعليم القادة عدم السكوت على أخطاء الجنود؛ لأن ذلك يضرهم ويلحق الضرر بغيرهم، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ومحاسبة مرتكبه وتقويمه، وبذلك يكونون معلمين ومرشدين ومربين.ولقد كان رسول الله ص علي علم تام بمعادن أصابه وطبائعهم يدل ذلك قول الرسول ص حينما قال له أصحابه: هذا راكب على الطريق مقبل

94) التاريخ الإسلامي، 111/8، 112.

فقال ص: «كن أبا خيثمة»، فلما اقترب وعرفوه قالوا: يا رسول الله، هو -والله- أبو خيثمة، فكان ق يعلم معادن رجاله، يعرف المستجيب من غيره، ويعرف التائب المنيب إلى ربه إذ زلت قدمه بسرعة رجوعه، ومعرفة خصال الرجال ومعادنهم تدل على معرفة واسعة، وخبرة مستوعبة فاحصة نتيجة التعامل والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة، فقد كان يخالط الجميع، يسمع منهم ويسمعهم ويسيرون معه، ويجاهدون تحت رايته(95).

كما لحق به أبوذر ا وهو لم يتخلف وإنما أبطأ به بعيره، مما دعاهإلى أن يأخذ متاعه فيحمله على ظهره، ويتبع أثر رسول اللّه ص ماشيا (96).وذكر ابن إسحاق قصته فقال : ثم مضى رسول الله ص سائرَا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره. فقال: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» وتلوّم(97)

95) الصراع مع الصليبيين، ص133.
96) الواقدي، 3/ 1008- 1015
97) تلوم على بعيره: تمهل.

أبو ذرعلى بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ص ماشياَ، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ص: «كن أبا ذر»(98) فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو -والله- أبو ذر، فقال رسول الله ص: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»(99)، ومضى الزمان، وجاء عصر عثمان، ثم حدثت بعض الأمور وسُيِّر أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا مت فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر. فلما مات فعلوا به كذلك فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر، فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال:صدق رسول الله ص: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»، فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه(100).

98) كن أبا ذر: لفظه الأمر ومعناه الدعاء؛ أي أرجو الله أن تكون أبا ذر.
99) السيرة النبوية لابن هشام ،178/4 .
100) السيرة النبوية لابن هشام ،178/4 .

الوصول إلى تبوك :

وصل المسلمون إلى تبوك، ولم يجدوا أثرًا للحشود الرومانية ولا القبائل العربية، وبالرغم من أن الجيش مكث عشرين ليلة في تبوك لم تفكر القيادة الرومانية مطلقا في الدخول مع المسلمين في قتال، حتى القبائل العربية المتنصرة آثرت السكون، أما حكام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية(101).

وعندما انتهى رسول اللّه ص إلى تبوك على رأس جيش العسرة، فلم يلق كيداً، وكعادته - ؛- في حربه مع أعدائه، أراد أن يستثمر حملته تلكالتي نجحت في بث الرعب في نفوس الروم وحلفائهم من العرب المتنصرة، وذلك لإخضاع المنطقة ومن فيها من القبائل العربيّة، والدويلات الموالية للروم التي باتت تشكل حرباً وتهديداً للمسلمين بتحالفها السياسي والعسكري مع البيزنطيين، الذي أثمر بوقوفهم جنباً إلى جنب ضد المسلمين في مؤتة. لذلك جهّز النّبيَ ص جيشاً من الفرسان، أسند قيادته لفارسِ مغوارِ حقّق لتوه نجاحاً منقطع النظير في معركة مؤتة التي دارت أحداثها في محيط المنطقة، ومع نفس العدوّ.

101) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ص 145 بإسناد صحيح.

ذلكم هو سيف اللّه المسلول، خالد بن الوليد ا ، وصدرت الأوامر النّبويّة العليا لقائد الجيش بأن يتوجّه تلقاء دومة الجندل.تلك الدويلة الصّغيرة التي كانت تتمتّع باستقلال ذاتي بوسط بلاد كلب، ويملكها الأكيدر بن عبد الملك الكندي الذي كان نصرانياً يدين بالولاء للدولة البيزنطية(102).

ولما علم خالد بن الوليد بقيادته السرية إلي دومة الجندل سأل النبي ص فقال: يا رسول اللّه! كيف بدومة الجندل وفيها أكيدر، وإنما نأتيهافي عصابة(103) من المسلمين"(104). فقال رسول اللّه ص لخالد: إنك ستجده يصيد البقر، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه منظر العين في ليلةٍ مقمرةٍ صافيةٍ"(105).يرسل اللّه - تبارك وتعالى - البقر إلى حصن الأكيدر لتخرجه من بين أهله وقومه، وعزه ومنعته، إلى خالد وأصحابه، لتتحقّق المعجزة النّبويّة، ويتحقق صدق الصادق المصدوق ص.فبينما خالد وأصحابه في منْزلهم ليلاً، إذ أقبلت البقر حتّى جعلت تحتك(106)

102) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 438
103) عصابة: جماعة ليست بالكثيرة العدد.
104) البيهقي ،دلائل 252/5
105) البيهقي ، دلائل 252/5
106) احتك به، وحكّ نفسه عليه.

بباب الحصن، وأكيدر يشرب ويتغنى في حصنه بين امرأتيه، فاطّلعت إحدى امرأتيه(107) فرأت البقر تحتك بالباب والحائط، فقالت امرأته: لم أر كالليلة في اللحم. قال: وما ذاك؟ فقالت: هذه البقر تحتك بالباب والحائط(108).

هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال: لا والله. قالت: فمن يترك مثل هذا؟ قال: لا أحد. فنَزل فأمرَ بفرسه فأُسْرِجَ له وركب معه نفرٌ من أهل بيته فيهم أخٌ له، يُقال له: حسَّان، فخرجوا بمطاردهم(109).ليصيد البقر الذي جاء بنفسه إليهم هذه الليلة خلاف العادة، ولم يَدُر بخَلَد الأكيدر وامرأته، ومَن ركب معه من أهله أنّ ذلك قدراً إلهياً، وأمراً عُلوياًّ، ومُعجزة نبويّة أكرم الله بها نبيّه ق ، وأمدّه بها تأييداً له وتمكيناً على أعدائه ،فلمّا فصلوا من الحصن، وخيل خالد تنظرهم لا يصهل منها فرس ولا يتحرّك"(110). فلمّا التقوا: شدّت عليهم خيل خالد بن الوليد، فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسان، وقاتل حتّى قُتِلَ وهرب مَن كان معهما، فدخل الحصن"(111)

107) ذكر الواقدي ، مغازي 1025/3، أنّ اسمها الرباب بنت أنيف بن عامر بن كندة.
108) البيهقي ، دلائل 252/5
109) جمع مطرد، وهو رمح قصير يُطعَن به. وقيل: يطرد به الوحش. ، اللسان 257/4 .
110) الواقدي ، مغازي 1026/3 .
111) ابن سعد ، طبقات 166/2

"وقال خالد لأكيدر: أرأيتك إن أجرتك تفتح لي دومة؟ قال: نعم. فانطلق حتّى دنا منها"(112). "ونادى أكيدر أهله: افتحوا باب الحصن ، فرأوا ذلك، فأبى عليهم مضاد أخو أكيدر(113) "فلمّا رأى ذلك قال خالد: "أيها الرجل! خلّني فلك الله لأفتحنّها لك، إنّ أخي لا يفتحها لي ما علم أنّي في وثاقك. فأرسله خالد، ففتحها له، فلمّا دخل أوثق أخاه وفتحها لخالد. ثُمّ قال: اصنع ما شئت. فدخل خالد وأصحابه، فذكر خالد ا قول رسول الله ص والذي أمره، فقال له أكيدر: والله ما رأيتها قط جاءتنا إلاّ البارحة - يريد البقر - ولقد كنت أضمّر لها(114)، إذا أردت أخذها فأركب لها اليوم واليومين، ولكن هذا القَدَر. ثُمّ قال: يا خالد! إن شئت حكّمتك، وإن شئت حكّمتني. فقال خالد: بل نقبل منك ما أعطيت! فأعطاهم ثمانمائة من السبي، وألف بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح"(115). "ثُمّ إنّ خالداً قدم بالأكيدر على رسول الله ص فحقن لهدمه، وصالحه على الجزية، وخلّى سبيله، فرجع إلى قريته" (116). ثُمّ إنّ أكيدر دومة الجندل أهدى لرسول الله ص حلّة حرير"(117) فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها. فقال: أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة، خير منها وألين"(118).

---

112) البيهقي ، دلائل 252/5
113) الواقدي، مغازي، 1025/3، وابن سعد ، الطبقات، 166/2 .
114) ضمّر الخيل تضميراً، علّفها القوت بعد السّمَن. (القاموس: الضمر).
115) البيهقي ، دلائل 252/5
116) البيهقي ، دلائل250/5
117) مسلم ، الصحيح69/5
118) أخرجه مسلم ، الصحيح 68/5 ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 443

ويستفاد من هذه السرية ما يأتي :

الحكمة من اختيار خالد بن الوليد لقيادة هذه السرية :

يتبيّن من إسناد النّبي ص قيادة هذه السرية لسيف الله خالد بن الوليد ا ، مدى ما كان يتمتع به عليه السلام من حنكة عسكرية فذّة، وذكاء منقطع النظير، فخالد بن الوليد ا هو القائد المظَفَّر، وبطل مؤتة المُتَوّج، ولا بُدّ أنّه أصبح معروفاً معرفةً تامّةً لدى القبائل العربية المنتصرة التي واجهته في مؤتة، وعرفت مدى ما كان يتمتّع به مِن ذكاءٍ قياديّ، وحنكةٍ عسكريةٍ، فأراد النّبيّ ص أن يستثمر هذا النجاح لخالد ضدَّهم، ويرميهم به ليتحصّل على أفضل النتائج المرجوة بأقل قدرٍ ممكنٍ من الخسائر، وتلك إستراتيجية الرسول القائد ص دائماً مع أعدائه.

المعجزة النبوية :

قال الأكيدر لخالد: "والله ما رأيتها قط جاءتنا إلاّ البارحة - يريد البقر - ولقد كنت أضمّر لها إذا أردت أخذها، فأركب لها اليوم واليومين".ويحقَّ للأكيدر وأهله أن يتعجّبوا من فِعل البَقَر تلك الليلة، لأنّه أمر خلاف العادة، وهكذا المعجزات النّبويّة دائماً تكون خارقة للعادات، ولقد كانت تلك قدرة إلهية، ومعجزة نبويّة، هيأها الله - تبارك وتعالى - لنبيّه ص تأييداً له وتمكيناً على أعدائه، فما كانت البقر لتأتي لحتفها بنفسها لولا أنّ خالقها أمرها بذلك، وساقها بلا سائق إلى ذلك المصير،

فالبقر وإن كانت حيواناً لا يعقل، ولكنها بفطرتها التي فطرها الله عليها تُدرك مكامن الخطر ومدارك الهلكة، فتبتعد عنها كثيراً، وهو الأمر الذي تعوّده الأكيدر عنها حيث كان يضمّر لها الخيل، ويستعد لها ثُمّ يركب في طبلها اليوم واليومين حتّى يجدها في مكامنها البعيدة عن الخطر، ولكن قدر الله عز وجل، وقدرته العلية، وأمره الذي لا يُردّ، سخّر ذلك البقر لنبيّه ق وجعله في خدمة أهدافه وطوّعه جندياً مجنّداً من جنوده، يستدرج به أعداءه بعيداً عن دار عِزه وسلطانه ليقع فريسة سهلة المنال في يد الجندي الآخر خالد بن الوليدا ، الذي خرج في طاعة قائده وإمامه ق ، ومنطلقاً دونما جدال ولا مناقشة، مِمَّا يدل على ما كان يتمتع به سلفنا الصالح - ي - مِنَ الإيمان المُطلق بنبيّهم ق ، وتصديقه فيما يقول، وطاعتهم لولي الأمر، وتأدّبهم الجممع مقامه الشريف ؛، ومعرفتهم حقّ الإمام من الطاعة فيما يأمر بمعروف.

لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة أحسن من هذا"

قال النّبيّ ص لأصحابه حينما رآهم يتعجّبون من الجُبّة التي أهداها له الأكيدر: "أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة أحسن من هذا". هذه الحادثة على بساطتها توضح لنا أمرين على درجة كبيرةِ من الأهمية:

الأمر الأوّل : معرفة مدى ما كان عليه الصحابة - ي - من البساطة، والتواضع، والزهد، وترك بهرج الدنيا، ربّاهم على ذلك المربِّي الأوّل، رسول الله ص الذي مات وهو لم يشبع من خُبز الشعير بأبي هو وأمي، وهو الذي لو أراد لَحِيزَت له الدُّنيا بأسرها.الأمر الثاني : معرفة مدى تفاهة متاع الدنيا وملذاتها، مقارنةً بنعيم الآخرة، وما أعدّه الله - تبارك وتعالى - للمتّقين في جنّات النعيم، فحُلَّة الديباج المنسوجة بالذهب لا تساوي شيئاً إذا قيست بمناديل الجنّة التي هي ليست من اللباس، بل دونه، فما بالك بلباسها؟!.

وهكذا كان المصطفى ق يُرَبِّي أصحابه مُوَضحاً لهم أنّ الدُّنيا بملذّاتها ونعيمها، وبما فيها من ذهبٍ وفضّةٍ وحريرٍ وديباجٍ، لا تساوي شيئاً يُذكر بِمَا أعدّه الله تبارك وتعالى لعباده في جنّاتٍ فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر.

وحينما يعرف الإنسان المؤمن التقيّ هذه الحقيقة الناصعة، فإنّه يكون أدعى لترك ما في الدنيا من ملذّات وشهوات، وأقرب للزهد فيها، والتّطلّع لِما ادّخره الله عز وجل لعباده المتّقين بالعمل الصالح، والجدّ في الطاعة، والتّقى والعفاف خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [سورة المطفّفين:26].

وقد آتت هذه التربية العظيمة أكلها وأينعت ثمارها مع سلفنا الصالح ي وهكذا رأيناهم حينما فتحت لهم الدّنيا، وانساقت إليهم بحذافيرها لم يغرّهم بهرجها، ولم ينخدعوا بنعيمها، ولم ينساقوا وراءها، بل كانوا أزهد الناس فيها، فملكوها ولم تملكهم، وساقوها بزمام التقى، والعفاف، وغنى النفس، والورع، والزهد، ولم تسقهم بزمام الشهوات، والملذّات، والنعيم الزائل، والمعاصي الموبقة، روّضوها لطاعة الله وجعلوها دار عبور وممرّ، وطريقاً إلى الجنّة، ولم تروّضهم لشهواتها وملذاتها، فتجعلها طريقاً لهم إلى النار ولم يتّخذوها دار بقاء وقرار.

إنّه عندما عرف السلف حقيقة هذه الدّنيا الفانية، دانت لهم فدانت لهم أممها من أقطارها، وعندما ضيّع الخلف هذه المفاهيم الصحيحة، ولم يعرفوا الدّنيا على حقيقتها، دانوا لها، فتداعت عليهم أممها من أقطارها:

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ. [الرعد: 11] (119).

119) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 452 - 455

وفي تبوك وصلت النبي ص هدية من ملك أيلة فَرْوَة بن عمرو الجُذَامي عبارة عن بغلة بيضاء، وكساء من البرد، وكان فروة قائداً عربياً من قواد الرومان عاملاً لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله مَعَان وما حوله من أرض الشام أسلم بعد ما رأي من جلاد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة 8هـ ولما أسلم بعث إلى رسول اللّه ص رسولاً بإسلامه، وأهدي له بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الردة والموت، فاختار الموت على الردة، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له : عفراء، وضربوا عنقه (120).

وتشير بعض الروايات إلى حصول مراسلة بين النبي ص - وهو في تبوك- وبين هرقل ملك الروم، وأن الأخير أرسل رسولا من قبيلة تنوخ العربية ليتعرف له على بعض علامات النبوة عند النبي ص (121).

---

120) بن عبد البر ، الدرر في اختصار المغازي والسير ، 274/1، الروض الأنف ، 378/4 ، البيهقي ، دلائل9/6

121) وكان دحية الكلبي قد حمل رسالة النبي ص إلى هرقل في أول السنة السابعة من الهجرة، فإذا صح هذا الخبر، فإن إرسال دحية الكلبي يكون للمرة الثانية، وقد أورد الإمام أحمد تفصيلات عن وصول الرجل التنوخي إلى تبوك وأن النبي ص عرض عليه الإسلام فامتنع بحجة أنه مكلف برسالة هرقل، ونقل التنوخي عن النبي ذكره لكتبه التي أرسلها إلى الملوك وكيف رد النبي ص على سؤال هرقل عن رسالته قال: «تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟، فقال النبي ص «سبحان الله أين اللّيل إذا جاء النّهار؟»، كما ذكر الرجل التنوخي اعتذار النبي ص له بأنهم في سفر وإلّا لمنحه جائزة، وأن عثمان ابن عفان قدم الجائزة نيابة عن النبي ص وهي «حلة صفورية». ويذكر التنوخي بعد ذلك بأن النبي ص قد أنزله ضيفا على أحد أصحابه من الأنصار، فلما قام من المجلس ناداه الرسول ص ، فلما وصل التنوخي إليه حل النبي ص حبوته عن ظهره وقال: «ههنا إمض كما أمرت له»، قال التنوخي: فجلت في ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة في موضع غضون الكتف مثل الحجمة الضخمة. أحمد، المسند، 3/ 442 .

وعقد رسول الله - ص - معاهدات لكل من أهل جرباء وأذرح(122)، ولأهل مقنا(123)، يؤدي بموجبها هؤلاء الناس من نصارى العرب الجزية كل عام، وتخضع لسلطان المسلمين، لقد انفرد رسول الله - ص - بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة وعقد معها معاهدات وبذلك أمن حدود الدولة الإسلامية الشمالية(124)، وبهذه المعاهدات قصّ - ق - أجنحة الروم، فقد كانت هذه القبائل تابعة للروم ودخلوا في النصرانية، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله والتزامها بالجزية يعتبر قصّ لهذه الأجنحة، وبتر لحبال تبعيتهم للروم، وتحرير لها من هذه التبعية التي كانت تذلهم وتخضعهم لسلطان الروم، لينالوا من تساقط فتاتهم شيئاً يعيشون به، وخوفاً من ظلمهم لقوتهم الباطشة وقد وفوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن يد وهم صاغرون(125)، وهذه سياسة نبوية حكيمة اختطها رسول الله في بناء الدولة ودعوة الناس لدين الله، فقد استطاع أن يفصلبين المسلمين وبين الروم بإمارات تدين للرسول بالطاعة وتخضع لحكم المسلمين

---

122) المغازي ، 1032/3 . وجرباء : بلدة بالشام تلقاء السراة. وأذرح: مدينة بالشام، قيل هي فلسطين، قال في القاموس: بجنب جربا.

123) مغازي الواقدي ، 415/1 ، الوثائق السـياسـية في عهد النبوة والخلافة الراشـدة، ص119-124. والمقنا: قرب أيلة . أنظر : معجم البلدان،128/8.

124) الصراع مع الصلبيين، ص217.

125) محمد صادق عرجون ،479/4.

وأصبحت في زمن الخلفاء الراشدين نقاط ارتكاز سهلت مهمة الفتح الإسلاميفي عهدهم فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم(126).

في طريق العودة إلى المدينة :

ومر المسلمون في طريق عودتهم من تبوك بالحجر وقد ثبت أن النبي ص نهى المسلمين عن دخول مساكن ثمود خشية أن يصيبهم ما أصابهم، فقد تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ص فنادى في الناس: الصلاة جامعة، فقال : " ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم، فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله، قال: أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله عز وجللا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً(127)

126) الصراع مع الصلبيين، ص221.
127) البخاري، الصحيح ، فتح الباري 8/ 125، أحمد- المسند 4/ 231.
(5) ابن كثير، البداية والنهاية، 5/ 11.

كما ورد أنه ق نهى الجيش عن شرب ماء الحجر أو الوضوء منه وأن يعلفوا إبلهم بما عجنوه بماء بئر الحجر فقد روي عن ابن عمر ب: إن الناس نزلوا مع رسول الله - ص - أرض ثمود، الحجر، واستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله - ص - أن يهريقوا ما استقوا من بئارها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة(128) وقال رسول الله - ص -: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم ثم زجر(129) فأسرع حتى خلفها(130). وهذا منهج نبوي كريم في توجيه رسول الله - ص - صحابته بإلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين كذبوا رسوله، وأن لا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهانهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء، لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقاً للتأثر بعذاب الله، ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوات، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم، فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، من نقمة الله وغضبه.

128) البخاري، كتاب الانبياء، رقم 3379.
129) زجر: أي زجر ناقته ومعناه ساقها سوقاً شديداً حتى خلفها أي جاوز المساكن.
130) البخاري، كتاب الأنبياء رقم 3381، ابن كثير، البداية والنهاية، 5/ 11.

إن الله عز وجل ما قص علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكي نأخذها منها العظة والاعتبار، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التي نزل فيها سخط المولى عز وجل وعذابه الأليم، وجب أن تكون الموعظة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى -سبحانه- أبلغ. ولهذا تسجى النبي ص -بثوبه لما مر بالديار الملعونة المسخوطة، واستحث خطا راحلته(131)وقال لأصحابه: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم(132).وحين اشتكى المسلمون ما أصاب إبلهم من التعب والجهد دعا اللّه سبحانه وتعالى قائلا: «اللّهمّ احمل عليها في سبيلك إنّك تحمل على القويّ والضّعيف، وعلى الرطب واليابس، في البرّ والبحر»، فاستجاب اللّه تعالى- جل شأنه- لدعاء النبي ص فنشطت الإبل حتى وصلت بهم المدينة دون أن يشتكي أحد منها (133).وحاول جماعة من المنافقين المشاركين في الجيش وهم ملثمون حتى لا يعرفوا أن ينفروا دابة النبي ص لتطرحه من رأس عقبة في الطريق مع عتمة الليل، فعلم بمؤامرتهم وفطن لهم وأمر بإبعادهم بعد أن عصمه اللّه تعالى من أذاهم (134)،

131) صور وعبرمن الجهاد النبوي في المدينة، ص480.
132) البخاري، كتاب الأنبياء رقم 3381.
133) أحمد- المسند 6/ 20، موارد الظمآن في زوائد ابن حبّان ص/ 418، بإسناد حسن.
134) أحمد، المسند ، 5/ 390- 91، البيهقي، السنن، 9/ 32- 3.

فعن عروة بن الزبير قال: لما قفل رسول الله ص من تبوك إلى المدينة هم جماعة من المنافقين بالفتك به وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق، فأخبر بخبرهم فأمر الناس بالمسير من الوادي وصعد هو العقبة وسلكها معه أولئك النفر وقد تلثموا، وأمر رسول الله ص عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه، عمار آخذ بزمام الناقة، وحذيفة يسوقها، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم، فغضب رسول الله ص وأبصر حذيفة فرجع إليهم ومعهمحجن، فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه، فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد أظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفةحتى أدرك رسول الله ص فأمرهما فأسرعا حتى قطعوا العقبة ووقفوا ينتظرون الناس، ثم قال رسول الله ص لحذيفة " هل عرفت هؤلاء القوم ؟ " قال: ما عرفت إلا رواحلهم في ظلمة الليل حين غشيتهم، ثم قال " علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب ؟ " قالا: لا، فأخبرهما بما كانوا تمالؤا عليه وسماهم لهما واستكتمهما ذلك؟ فقالا يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم ؟ فقال " أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه "

قال ابن إسحاق : وفيهم أنزل الله عز وجل: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [التوبة: 74] (135).

ولما أشرف رسول الله ص على المدينة قال هذه طابة أسكننيها ربي تنفى خبث أهلها كما ينفي الكير خبث الحديد ، ولما رأى ق جبل أحد قال هذا أحد جبل يحبنا ونحبه ، ثم قال : إن خير دور الأنصار دار بني النجار ، ثم دار بني عبد الأشهل ، ثم دار بني الحارث بن الخزرج ، ثم دار بني ساعد ، وفي كل دور الأنصار خير ، ثم لحق سعد بن عبادة بالجيش، فقال له أبو أسيد : ألم تر أن رسول الله ص خير دور الأنصار فجعلنا آخرها دارا ، فأدرك سعد رسول الله ص ، فقال : يا رسول الله ، خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخرها ، فقال : » أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار(136).

---

135) أحمد، المسند، 5/ 390- 91، البيهقي ، دلائله ، 5 / 256 - 258 ، البداية والنهاية ، 5 /25

136) رواه مسلم في الصحيح، في كتاب الفضائل ، الحديث 11 ،والبخاري في الصحيح: في الزكاة ، الحديث ،1481، فتح الباري ،3 / 343 .البيهقي ، دلائل 352/5

ولما اقترب الجيش الإسلامي من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع لاستقباله (137)، ومعهم النساء والولائد وهم يرددون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا للّه داع(138)

وكان أول ما فعله النبي ص عند دخوله المدينة أن صلّى في مسجده الشريف ركعتين، ثم جلس للناس فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة فاعتذروا بشتى الأعذار فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى اللّه تعالى (139).

---

137) البخاري، الصحيح، 6/ 8 ، كتاب المغازي .
138) ابن حجر ، فتح الباري ، 4426- 4427 .
139 البخاري، الصحيح ، فتح الباري- الحديث 4418 ، مسلم، 4/ 2123، حديث ، 2769 .

حرق مسجد الضرار :

وقد أصبح الموقف جدياّ من المنافقين بعد الرجوع من غزوة تبوك، فقد امتنع النبي ص عن الصلاة في مسجد الضرار الذي كانوا بنوه قبل الغزوة، وأمر بتحريقه ، وأنزل الله عز وجل قوله :وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) [سورة التوبة:107،108]

وقصة المسجد الضرار أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله - ص - إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله - ص - مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ص فاجتمعوا بمن وافقهم في أحياء العرب فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله - ص -

وأصيب ذلك اليوم فجرح وكسرت رباعيته اليمنى والسفلى وشج رأسه ق ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا لا أنعم الله بك عينا – يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبّوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله - ص - قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ص أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول - ص - في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي - ص - فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم بجيش يقاتل به رسول الله ص ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله - ص - إلى تبوك وجاءوا فسألوا رسول الله ص أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: إنّا على سفر

ولكن إذا رجعنا إن شاء الله، فلما قفل ؛ راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد ضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم، مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ص إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة(140) .

وكان هدف المنافقين من بناء مسجد الضرار أربعة أمور:

الضرار لغيرهم، هو المضارّة.

الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق.

التفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة مالا يخفى.

الإرصاد لمن حارب الله ورسوله. أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله(141)

وقد خيب الله تعالى مسعاهم، وأبطل كيدهم، بأن أمر نبيه - ق - بهدمه وإزالته .

---

140) تفسير ابن كثير ، 388/2 .

141) تفسير الشوكاني ، 403/2 .

وقوله سبحانه: ذم لهم على أيمانهم الفاجرة، وأقوالهم الكاذبة لذلك قال تعالى ثم نهى الله - تعالى- رسوله والمؤمنين عن الصلاة في هذا المسجد نهياً مؤكداً فقال -سبحانه-:
لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) [سورة التوبة:108].

والملاحظ في واقعة المسجد الضرار أن العناية الإلهية كانت تحيط بالحبيب محمد - ص -، فقد أطلعه الله عز وجل على أسرار هؤلاء المنافقين وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم، ولصلى في البناء، فأضفى عليه الشرعية وأقبل الناس يصلون فيه لأن رسول الله - ص - صلى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين وضعاف المسلمين فينفردون بهم وقد يؤثرون عليهم بالإشاعات(142).كما إن ما قام به الرسول - ص - من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل، وهذا منهج نبوي كريم سنّة لقادة الأمة في القضاء على أي عمل يراد منه الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم، فالداء العضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه،

142) الصراع مع الصلبيين، ص181.

وإنما يعالج ببتره وإزالة آثاره، حتى لا يتجدد ظهوره بصورة أخرى، وإن الثمار العملية، التي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر النبوي الحازم لتدلُّنا على أن هذه المنهجية التي نهجها رسول الله - ص - مع هذا المكر الخبيث هي الطريقة المثلى لقمع حركة النفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرهم بعد ذلك يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول - ص - بالرفيق الأعلى إلا عدد قليل، ولم يعرف عنهم بعد تدمير مسجد ضرار أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم(143).والحقيقة أن هذا المسجد -مسجد الضرار- الذي اتخذ على عهد رسول الله ص مكيدة للإسلام والمسلمين .. هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى، يتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه ... وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتَتَترّس وراءها، وهي ترمي هذا الدين، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام، لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب بما توحيه لهم من أن الإسلام بخير، وأن لا داعي للخوفأو القلق عليه(144).

143) التاريخ الإسلامي ، 130/8 .
144) في ظلال القرآن ، 1710/3-1711 .

ولا يزال أعداء الإسلام من المنافقين والملحدين، والمبشرين والمستعمرين يقيمون أماكن باسم العبادة وما هي لها، وإنما المراد بها الطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وآدابهم، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بث سمومهم بين أبناء المسلمين، وصرفهم عن دينهم، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثقافة والغرض منها خلخلة العقيدة السليمة في القلوب والقيم الخلقية في النفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة لاسيما في بلاد إفريقيا ذريعة للتوصلإلى أغراضهم الدنيئة التي لا يقرها عقل ولا شرع ولا قانون(145).إن مسجد الضرار ليس حادثة في المجتمع الإسلامي الأول وانقضت بل هي فكرة باقية، يخطط لها باختيار الأهداف العميقة، وتختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها، وخططها تصب في التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه وقلب الحقائق، والتشكيك، وزرع بذور الفتن لإبعاد الناس عن دينهم وإشغالهم بما يضرهم ويدمر مصيرهم الأخروي(146)

145) ابو شهبة، السيرة النبوية ، 508/2.
146) الصراع مع الصليبيين، ص182.

كما امتنع الحبيب محمد ص عن الصلاة على أمواتهم فقد منعه اللّه من ذلك فنزل قوله تعالى: وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ [سورة التوبة:84] (147). وقد نهى اللّه تعالى عن قبول أعذار المنافقين، فقال في محكم التنزيل:

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [سورة التوبة:94].وقد أمر اللّه تعالى بعدم تصديقهم وبالإعراض عنهم ووصفهم بأنهم رجس فقال تعالى:

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96)[سورة التوبة:95،96].

147) البخاري، الصحيح ، فتح الباري، 3/ 214، 8/ 333.

المخلفون :

كان عدد المتخلفين كبيرا، ولما كان عدد أفراد الجيش كبيرا فقد ظن المتخلفون أن أحدا لا يفطن إلى غيابهم وكانوا أربعة أصناف فمنهم من له أعذار شرعية وعذرهم الله سبحانه وتعالى، ومنهم من ليس له أعذار شرعية وتاب الله عليهم، ومنهم من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة، ومنهم من منافقي المدينة.

أولاً: المخلفون الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله سبحانه وتعالى: وفيهم نزل قوله تعالي : لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (92) ۞ [سورة التوبة:91،92]ثانياً: المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم: وفيهم نزلت ثلاث آيات : قوله تعالى: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة التوبة:102].

هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم والمراد بالعمل الصالح: ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن والمراد بالعمل السيئ: هو تخلفهم عن هذه الغزوة. وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملاً صالحاً وهو الاعتراف به والتوبة عنه.

وأصل الاعتراف والإقرار بالشيء. ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

وفي قوله: دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو مقدمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة وحرف الترجي وهو عسى هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع لأن الأطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة التوبة:102]، أي: يغفر الذنوب ويتفضل على عباده(148).

148) تفسير الشوكاني ، 399/2 .

قوله تعالى: وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) [سورة التوبة:106].

والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصحيحين هلال بن أمية، وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع .. وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله ص لأمر ما مع الهم باللحاق به عليه الصلاة والسلام فلم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق وحاشاهم فقد كانوا من المخلصين فلما قدم النبي ص وكان ما كان من المتخلفين قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له ق ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري(149) وأمر رسول الله باجتنابهم وشدد الأمر عليهم ، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة لا يدرون ما الله تعالى فاعل بهم(150).

قال تعالى: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [سورة التوبة:118].والمراد بـهؤلاء الثلاثة هم هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع وفيهم نزلت هذه الآية(151) .

---

149) أي الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة وأصحابه.
150) تفسير الآلوسي ، 17/11 .
151) حديث القرآن الكريم ، 677/2 .

وسوف نرجئ الحديث عنها إلي نهاية الحديث عن الغزوة لطول الحديث الذين قد يخرج عن السياق .ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة: هؤلاء المخلفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [سورة التوبة:90].وقد جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤا به من الأعذار بحق أو باطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول الله - ص - بالتخلف عن الغزوة وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزوة ولغير عذر، وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله ولم يؤمنوا ولا صدقوا، ثم توعدهم الله -سبحانه- فقال: أي: من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا بل كذبوا بالله ورسوله:

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [سورة التوبة:90]

أي: كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا والآخرة(152). ونزل فيهم قوله تعالى:وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۙ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ [سورة التوبة:101] ، والمعنى: واذكروا أيها المؤمنون أنه يسكن من حول مدينتكم قوم من الأعراب منافقون، فاحترسوا منهم(153).رابعاً: المخلفون من منافقي المدينة:قال تعالى: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83) [سورة التوبة:81-83]. ويلاحظ اختلاف سياسة الرسول - ص - في معاملته للمنافقين عندما اعتذروا له عن المسلمين حيث أنه - ق - عامل المنافقين باللين والصفح، واختار للمسلمين الصادقين الشدة والعقوبة؟

---

152) تفسير الشوكاني ، 391/2 .

153) حديث القرآن الكريم، 681/2 .

ولاشك أن الشدة والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهر للإكرام والتشريف، وهو ما لا يستحقه المنافقون، وكيف يستحق المنافقون أن تنزل آيات في توبتهم -على أي حال- أنهم كفرة، ولن ينشلهم شيء مما يتظاهرون به في الدنيا، من الدرك الأسفل في النار يوم القيامة، وقد أمر الشارع جلّ جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به ونجري الأحكام الدنيوية حسب ظواهرهم، ففيم التحقيق عن بواطن أعذارهم وحقيقة أقوالهم، وفيما معاقبتهم في الدنيا على ما قد يصدر عنهم من كذب ونحن إنما نعطيهم الظاهر فقط من المعاملة والأحكام، كما يِبدو لنا هم أيضاً، الظاهر فقط من أحوالهم وعقائدهم قال ابن القيم: وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده، بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظاً حذراً، وأما من سقط من عين الله وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة(154).

---

154) زاد المعاد ، 578/3.

مواقف إيمانية من غزوة تبوك :

قصة الثلاثة الذين خلفوا:

وردت قصة الثلاثة الذين خلفوا على لسان كعب بن مالك ا فيقولا: لم أتخلف عن رسول الله - ص - في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ص يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد، ولقد شهدت مع رسول الله - ص - ليلة العقبة(155) حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قطٌّ أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة. والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطٌّ حتى جمعتها في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله - ص - يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله - ص - في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدوا كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله - ص - كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ -يريدون الديوان- قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحيَ الله.

155) ليلة العقبة: الليلة التي بايع رسول الله ص الأنصار على الإسلام.

وغزا رسول الله - ص - تلك الغزوة حيث طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله - ص - والمسلمون معه، فطفقت أغدوا لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقضي شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدَّ، فأصبح رسول الله - ص - والمسلمون معه ولم أقضي من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقضي شيئاً. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقضي شيئاً. فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو(156)، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس -بعد خروج رسول الله - ص - فطفقت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله - ص - حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، والنظر في عطفيه(157).

156) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.
157) والنظر في عطفيه: أي جانبيه وهو إشارة الى إعجابنه بنفسه ولباسه.

فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت: والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله - ص -: فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً(158) يزول به السراب(159)، فقال رسول الله - ص - : كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه(160) المنافقون فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله - ص - قد توجه قافلاً(161) من تبوك حضرني بثي(162)، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل لي: أن رسول الله - ص - قد أطل قادماً(163) زاح (164) عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه(165) ، وصبح رسول الله - ص - قادماً، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله - ص - علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت، تبسم المغضب ثم قال:(تعال) فجئت أمشي حتى جلست بين يديه،

158) مبيضاً: لابس البياض.
159) يزول به السراب: يتحرك وينهض، والسراب ما يظهر للإنسان.
160) لمزه المنافقون: عابوه واحتقروه.
161) توجه قافلاً: راجعاً.
162) حضرني بثني: حزني.
163) أظل قادماً: أقبل ودنا قدومه كأنه أبقى على ظله.
164) زاح: ازال.
165) أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.

فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال: قلت: يا رسول الله! إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً(166)، ولكني، والله! لقد علمت، لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن(167) الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه(168) إني لأرجو فيه عقبى الله(169). والله! ما كانلي عذر، والله! ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله ص: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني. فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا. لقد عجزتفي أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله - ص - بما اعتذر به إليه المخلفون. فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله - ص - لك. قال فوالله! مازالوا يؤنبونني(170) حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله - ص - فأكذب نفسي.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم. لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدوا بدراً، فيهما أسوة.قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

---

166) أعطيت جدلاً: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة.
167) ليوشكن: ليسرعن.
168) تجد عليّ فيه: تغضب.
169) إني لأرجو عقبى الله: يعقبني خيراً ويثيني عليه.
170) يؤنبونني: يلومنني اشد اللوم.

قال: فاجتنبنا الناس، وقال: تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض. فما هي بالأرض التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا(171) وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم(172) فكنت أخرج، فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله - ص -، فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام، أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى طال ذلك علي من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي. فسلمت عليه فو الله! مارد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله(173) هل تعلم إني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام(174)،

171) استكانا: خضعا.
172) أشب القوم وأجلدهم: أي أصغرهم سناً وأقواهم.
173) أنشدك بالله: أسألك بالله.
174) نبطي أهل الشام: فلاحو العجم.

ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ. حتى جاءني فدفع إلى كتاباً من ملك غسان. وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة(175)، فالحق بنا نواسك. قال: فقلت: حين قرأتها وهذا أيضاً من البلاء فتايممت (176) بها التنور، فسجرتها(177)، بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي(178)، إذا رسول الله ص يأتيني فقال: إن رسول الله - ص - يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها. قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل هذا.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله، ص قالت له: يا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربنك فقالت: إنه والله! ما به حركة إلى شيء، والله مازال يبكي منذ كانمن أمره ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ص في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله - ص –

175) مضيعة: يعني أنك لست بأرض يضيع فيها حقك.
176) فتايممت: تيممت: قصدت.
177) فسجرتها: احرقتها.
178) استلبث الوحي: أبطأ.

وما يدريني ماذا يقول رسول الله ص إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. قال فلبثت بذلك عشر ليال. فكمل لنا خمسون ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أو في على سلع(179)، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج قال: فآذن(180) رسول الله - ص - توبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا فذهب قِبَل صاحبي مبشرون وركض رجل إليّ فرساً، وسعى ساع من أسلم قبلي. وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، فنزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله! ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمم(181) رسول الله - ص - يتلقني الناس فوجا فوجا(182)، يهنئوني بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ص جالس في المسجد، وحوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله! ما قام رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب: فلما سلمت على رسول الله - ص - قال: وهو يبرق وجهه من السرور،

---

179) أوفى على سلع: صعده وارتفع عليه وسلع جبل بالمدينة معروف.
180) فآذن الناس: أي اعلمهم.
181) أتأمم: أي أقصد.
182) فوجاً فوجاً: الفوج الجماعة.

ويقول: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال: قلت: أمن عندك؟ يا رسول الله! أم من عند الله؟ فقال: لا بل من عند الله وكان رسول الله - ص - إذا استنار وجهه كان قطعة قمر قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع(183) من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله - ص -. فقال رسول الله - ص -: أمسك بعض مالك، فهو خير لك قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. قال: وقلت: يا رسول الله: إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت قال: فو الله! ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه(184) الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله - ص - إلى يومي هذا، أحسن مما أبلاني الله به. والله ما تعمدت كذبة منذ قلت لرسول الله - ص - إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقى. قال: فأنزل الله عز وجل: لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (117) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[سورة التوبة:117،118].

183) أنخلع من مالي: أتصدق به.
184) أبلاه الله: أنعم عليه.

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط، بعد إذ هداني للإسلام، أعظم في نفسي، من صدقي رسول الله - ص - أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، وقال الله: سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96) [سورة التوبة:95،96]. قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ص حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله - ص - أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عز وجل: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [سورة التوبة:118].وليس الذي ذكر الله مما خلفنا، تخلفنا عن الغزوة، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا(185)، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه(186).

185) إرجاءه أمرنا: تأخيره أمرنا.
186) البخاري، كتاب المغازي رقم 4418؛ صحيح السيرة النبوية، ص614.

ومن الفوائد في هذه القصة :

فوائد الشدائد :

الشدائد ميدان ، وفي الميدان يكون المران ، وقد قيل : "عند الطعان يتبين الرجال ، و التجربة خير برهان . وصعوبة الملمات والشدائد محك تظهر فيها الصفات والخلائق ، وتنكشف فيها القدرات والمواهب ؛ فالشدة تظهر العلة ،والأمة تتعلم في الملمة ، وما وعظ امرأ مثل تجاربه . والناجحون في الحياة هم الذين واجهوها ، وتعاملوا معها ، واعتادوا شرها وخيرها" . في الشدائد يتميز المؤمن عن المنافق ، والصادق عن الكاذب ، ويقف المرءعلى حقيقة إيمانه ، ومدى عمقه ورسوخه ، فحاشا لله سبحانه أن يعذب عباده بالابتلاء ، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة (187)، وقد قال سبحانه :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11) [سورة العنكبوت:10،11].

وقال : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ [سورة محمد:31].

---

187) في ظلال القرآن ، 2721/5 .

فلما هجر الناس كعب بن مالك - ا - بعد تخلفه عن غزوة تبوك ، وضاقت به الحال والمقام ، جاءه كتاب من ملك غسان النصراني ، فإذا فيه :« بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك ، ولست بدار مضيعة ولا هوان ، فالحق بنا نواسك » . فما كان منه - ا - إلا أن أحرقه ، فقد علم أن هذا من البلاء .

لقد ميزت هذه الأزمة عدو الإسلام من صديقه ، وكشر كل ذي ناب عن نابه ، وبان لنا ما وراء الأكمة ، وعند النازلة تعرف أخاك .ولم نكن نعلم ماذا يريد أن يفعل ملك غسان لولا قصة هؤلاء المخلفون الثلاثة . لقد كان الأعداء يمكرون ويخططون من وراء ستار ، فصاروا ينفذون علنا أمام الأنظار ، فزالت الغشاوة عن البصائر والأبصار . إن أمر عدو ظاهر أيسر من أمر عدو مختفوكامن ، ومواجهة خصوم تعرفهم أيسر من مواجهة خصم لا تعرفه .

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوي من صديقي

ولقد كان الخروج إلى تبوك لقتال الروم في وقت جدب في البلاد ، وشدة حر ،واستواء الثمار ، وخرج الجيش المسلم بقيادة الرسول ص ، فبدأ المنافقونفي الظهور ؛ بسخريتهم ببعض المسلمين ، ومحاولتهم توهين القوى وتشتيت الطاقات ، وكان عبد الله بن أبي رأس المنافقين يعسكر بجنوده أثناء المسيرإلى تبوك أسفل معسكر النبي عليه الصلاة والسلام ،

ثم تخلف ابن أبي ومعه كثير من المنافقين عن الجيش ، وقال بعضهم : « أيغزو بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ؟! أيحسب أن قتالهم كقتال غيرهم ؟! والله ! لكأني أنظر إليهم مقرنين غداً في الحبال » . وكان بعضهم قد تخلف بتعلات باطلة ، من بعد الشقة وشدة الحر . لقد كانت هذه الحال ، وهذه الشدة كافية في فضح المنافقين ، وتمييز المؤمنين الصادقين .

الصدق منجاة:

الصدق من أعظم مقامات الإيمان وشعبه، ولقد أدرك كعب وهلال، ومرارة ي خطورة الكذب فعزموا على سلوك طريق الصراحة والصدق وإن عرّضهم ذلك للتعب والمضايقات، ولكن كان أملهم بالله تعالى كبيراً في أن يقبل توبتهم ثم يعودون إلى الصف الإسلامي أقوى مما كانوا عليه(188)، وما أجمل ختم رب العالمين توبته على كعب ومن معه بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ [سورة التوبة:119].

---

188) التاريخ الإسلامي ، 138/8 .

العقاب بالهجر :

الهجر عقوبة زجرية متعددة الغايات والمقاصد الشرعية المحمودة ، من فوائدها :
أن الزجر بالهجر عقوبة شرعية للمهجور ، ويبعث اليقظة في نفوس المسلمين من الوقوع في المعصية وتحذيرهم ، وتحجيم انتشار المعاصي ، وقمع العاصيوزجره ، ليضعف عن نشر المعصية ، فإنه إذا حصلت مقاطعته والنفرة منه بات كالثعلب في جحره .أما معاشرته ومخالطته ، وترك تحسيسه ببدعته : فهذا تزكية له ، وتنشيط وتغرير بالعامة ، إذ العامي مشتق من العمى ، فهو بيد من يقوده غالباً، فلابد إذاً من الحجر على أهل المعاصي استصلاحاً للديانة وأحوال الجماعة ، وهو ألزم من الحجر الصحي لاستصلاح الأبدان .قال ابن تيمية عن العقاب بالهجر : "إن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله ، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً " (189)

189) مجموع الفتاوى ،20/ 32 36 .

وهذا الهجر التربوي يختلف عن الهجر الذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا فهذا دنيوي وذاك ديني، فالهجر الديني مطلب شرعي يثاب عليه فاعله، أما الهجر الدنيوي فإنه مكروه إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام فإنه يكون محرماً(190)، لقول رسول الله - ص - : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام(191)، ولقوله - ق -: من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه(192).

التنظيم الدقيق للمجتمع الإسلامي :

يتميز المجتمع الإسلامي بالتنظيم الدقيق ، والاستجابة السريعة لأوامر القيادة العليا ، فقد استجاب المجتمع المسلم كله في المدينة لتنفيذ أمر المقاطعة والهجر الذي صدر من القائد الأعلى - ق - وامتنعوا جميعاً عن الحديث هؤلاء الثلاثة ووصف كعب لنا ذلك فقال:... فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد(193) ...

190) التاريخ الإسلامي ، 138/8 .
191) مسلم، كتاب البر، رقم 2560، ص1984.
192) مسند أحمد ، 220/4 .
193) الصراع مع الصليبيين، ص195.

وقد أطلق كعب السلام على ابن عمه أبي قتادة فلم يرد ؛وناشده بالله مراراً: هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، مع أنه من أحب الناس إليه، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزَّع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيز عليه، وبين تنفيذ أمر النبي ص بتطبيق الهجر التربوي ولكن ليس هناك تردد بين الأمرين، فالذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبي - ص - فظهر ذلك على سلوكه(194).

وقد بلغ الالتزام بالأمر النبوي في الهجر التربوي ذروته حين أمر رسول الله ص الثلاثة الذين خلفوا باعتزال زوجاتهم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا فالتزم الجميع بذلك واستأذنت زوج هلال بن أمية وكان شيخاً طاعناً في السن لا يجد من يخدمه فطلبت من الرسول - ص - أن يأذن لها أن تخدمه فأذن لها النبي - ص - بذلك شريطة ألا يقربها فالتزمت ل (195).

الابتلاء بالخير والشر :

لما أرسل ملك غسان إلي كعب بن مالك رضي الله عنه يقول له :" قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك قال : هذا أيضاً من البلاء والشر ،فسجرت لها التنور وأحرقتها فيه »(196) .

194) التاريخ الإسلامي ، 140/8 .
195) الصراع مع الصلبيين، ص196.
196) البخاري، كتاب المغازي ، رقم 4418.

ولم يكن هذا الابتلاء يحتاج إلى مجرد تفكير ، بل سارع إلى حسم مادته من جذورها ، وذلك بتسجِيرها لأول وهلة وعدم الجواب على تلك الرسالة ؛ فالأمر جد خطير ، والبلاء عظيم ، هكذا الصبر والعزيمة .ولهذا وذاك جاء الفرج : " حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي ص الناس عن كلامنا صليت على ظَهْر بيت لنا صلاة الفجر ، ثم جلست وأنا في المنزلة التي قال الله عز وجل قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت علينا أنفسنا ؛ إذ سمعت نداءَ من ذروة سَلْع أن أبشر يا كعب بن مالك !فخررت ساجداً وعرفت أن الله قد جاءنا بالفرج "(197) . والله يقول جل وتقدس

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [سورة الأنبياء:35] . إن الابتلاء بالخير أشد وطأة وإن خُيَل للناس أنه دون الابتلاء بالشر ، إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير .

197) البخاري، كتاب المغازي ، رقم 4418.

الولاء التام لله ورسوله:

كان العدو الصليبي يراقب ويرصد ويستغل الفرصة السانحة لكي يمزق الجبهة الداخلية ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ليوهن البنيان ويقوض الأركان ولذلك استغل ملك غسان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالك اوعقوبة رسول الله - ص - له بأن يرسل سفيره لكعب برسالة خاصة منه إليه يغريه فيها تأمل قوله: قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك(198)، فكان تعليق كعب على هذه الرسالة: وهذا من البلاء أيضاً! قد بلغ مني ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجال من أهل الشرك! ثم أحرق الرسالة(199).إن هذا الذنب وهذا العقاب لم يحلل كعباً من ولائه لدينه..لعقيدته، لم يحلله من قضيته الكبرى، لقد نظر إلى هذا الكتاب على أنه جزء من الابتلاء. فحمل الكتاب ثم أوقد التنور وقال:' وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ' فأحرق الكتاب في التنور وبقي يعاني ألم القطيعة. لقد رفض ـ ا ـ هذا الود الظاهر في وقت هو فيه أحوج ما يكونإلى من يواسيه ويواليه؛ لكن لما قام في قلبه من عظم الولاء لله ولرسوله، والبراءة من أعداء الدين؛ رفض هذه الدعوة التي كشفت له بصيرته ما وراءها، فرفضها وعدها بلاء آخر فكانت عقباه الخير. علمتنا هذه القصة أن الأمة حين تربي أبناءها وفق شرع ربها ، وحين تبني في نفوسهم صرح الإيمان ،

---

198) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4418.
199) المغازي ، 1051/3-1052 .

وحين تغرس في قلوبهم نبتة الإخلاص لله ولدينه ؛ فإن قوى الأرض وإن هزمتهم في وقت ظاهرا لن تهزمهم في بواطنهم ، ولن تفلح في تركيعهم ، ولن تنال من عزتهم ، ولن تقوى على تغيير مبادئهم .

صدق الإخوة في الله :

من أثمن ما يملكه المسلم في هذه الحياة الدنيا بعد الصلة بالله عقد الأخوة الإيمانية الذي عقده مع من يحبهم في الله ، وتعاهد معهم على العمل سوية في سبيل نصرة دين الله . هذا العقد من أقوى الأسباب لمجابهة الصعاب والتحديات ، ولحل المشكلات التي تعترض الطريق ، وبه يشعر المسلم أنه ليس وحيدا ، فهناك من يشد أزره ويضع يده على يده ،فعندما نزلت الآيات الكريمة التي بينت توبة الله على هؤلاء الثلاثة كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله - ق - حتى استنار كأنه قطعة قمر، وظهرت الفرحة على وجوه الصحابة ي حتى صاروا يتلقون كعباً وصاحبيه أفواجاً يهنئونهم بما تفضل الله به عليهم من التوبة وجاء كعب إلى النبي - ص - ووجهه يبرق من السرور فقال له: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك.وفرحة الحبيب محمد ص والصحابة بتوبة المولي عز وجل علي كعب لدليل واضح علي صدق الإخوة في الله التي تربط الصحابة ي ببعض البعض وبالحبيب محمد ص.

تبشير الرسول ص كعب :

والتبشير بالخير والشيء الطيب السار والأمر المفرح من السنة, وهومن الآداب الإسلامية العظيمة, والبشارة تكون في الأمور التي تسر وسميت بذلك لأن الإنسان كان إذا بشر بما يسره ظهر أثر ذلك في وجهه وفي بشرته ، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله - ص - قال: وهو يبرق وجهه من السرور، ويقول: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك (200)وفيه دليل على جواز التهنئة والتبشير بأمور الخير بل على ندبها إذا كانت دينية فإنها إظهار السرور بما يسر به أخوه المسلم وإظهار المحبة وتصفية القلب بالمودة

تشرع أنواع من العبادات شكراً لله عند النعمة:

كانت فرحة كعب بن مالك بتوبة الله – سبحانه وتعالى - عليه، لا تحدها حدود ولا تصورها مثل، وقد تفنن هو - ا - في التعبير عنها بجملة من العبادات منها:

---

200) أنخلع من مالي: أتصدق به.

سجود الشكر:

حينما سمع كعب البشارة بتوبة الله عليه خرّ ساجداً من فوره شكراً لله-تبارك وتعالى-، فقد كان من عادة الصحابة - ي - أن يسجدوا شكراً لله تعالى كلما تجددت لهم نعمة أو انصرفت عنهم نقمة وقد تعلموا ذلك من رسول الله ص.

مكافأة الذي يحمل البشرى:

فقد نزع كعب ثوبيه اللذين كان يلبسهما، فكساهما الذي سمع صوته بالبشرى، وما كان يملك وقتئذ غيرهما، ثم استعار ثوبين، فلبسهما، ولاشك أن هذا ضرب من الهبة المشروعة، فإن كان المبشر غنياً كان له هدية، وإن كان فقيراً كان له صدقة، وكلاهما إخراج المال شكراً لله تعالى، على إنزاله الفرج.

التصدق بالمال:

فقد جعل كعب من توبته أن ينخلع من ماله صدقة لله تعالى لكنه -عليه الصلاة والسلام- لم يتقبل منه التصدق بجميع ماله، وقال له: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك، وكأنه يستشيره بذلك، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله(201).

---

201) صور وعبر من الجهاد النبوي، ص493.

قيام الرسول ص على دفن ذي البجادين (202)ا:

قال عبد الله بن مسعود ا: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ص في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله - ص - وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول - ص - في حضرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: أدنيا إلى أخاكما، فدلياه إليه، فلما هيأه بشقة، قال: اللهم إني أمسيت راضياً عنه، فارض عنه. قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة(203).هذه صورة من البر والتكريم فريدة يتيمة، لن تجد في تاريخ الملوك والحكام، من يبرّ ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير، ثم يلتمس له المرضاة من رب العالمين، أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضياً عنه(204).وإذا تأملنا قول عبد الله بن مسعود - ا - حينما سمع رسول الله ص يقول بحق ذي البجادين: اللهم إني أمسيت عنه راضياً فارضي عنه، فقال ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب اللحد(205)

202) البجاد: الكساء الغليظ الجافي. وإنما سمى ذو البجادين، لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله - ص - فلما كان قريباً منه، شق بجاده باثنين، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله - ص - فقيل له: ذو البجادين، لذلك . السيرة النبوية لابن هشام ،182/4.

203) صحيح السيرة النبوية، ص598.

204) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص472.

205) صحيح السيرة النبوية، ص598.

نجد أنها كلمة كل مؤمن آمن بالله واليوم الآخر، ووقف موقفه ذاك فقد عرفوا أين تكون ميادين التنافس(206).

وهي تعبير عن الغبطة والتي هي تمنى حصول الخير لك كما حصل لغيرك من إخوانك وهذا عكس الحسد، إذ الحسد تتمنى زوال النعمة عن غيرك والحسد كله شر كما ترى، أما الغبطة فلا تكون إلا في الخير(207) .

معجزات علي طريق الغزوة :

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ [سورة الأعراف: الآية 146].قال محمود بن لبيد: لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله - ص - حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله - ص - حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه ونقول: ويحك! هل بعد هذا الشيء؟ قال: سحابة مارة(208).

206) معين السيرة، ص452.
207) الصراع مع الصليبيين، ص163،164.
208) السيرة النبوية لابن هشام ،176/4

لما جاوز النبي - ص - حجر ثمود، أصبح الناس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله - ص - فدعا رسول الله - ص - ربه، واستسقى لمن معهمن المسلمين، فأرسل الله - سبحانه وتعالى- سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، وبالرغم من أن هذه معجزة تأكد الصحابة رضوان عليهم أنها معجزة ، إلا أن المنافقين لم يعترفوا بذلك وصدق فيهم قوله المولي عز وجل :" سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ [سورة الأعراف: الآية 146].

ناقة رسول الله ص:

لما كان رسول الله - ص - سائراً في طريقه إلى تبوك، ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله - ص - رجل من أصحابه، يقال له: عُمارة بن حزم وكان عقبيّاً بدرياً، وهم عم بني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي، وكان منافقاً.قال زيد بن اللُّصيت وهو في رحل عمارة، وعُمارة عند رسول الله - ص - : أليس محمد يزعم أنه نبي؟ ويخبركم عن السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ص - وعُمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟

وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزمإلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حدَّثناه رسول الله - ص – آنفاً عن مقالة قائل، أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد بن اللصيت. فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله - ص -: زيد، والله، قال هذه المقالة قبل أن تأتي فأقبل عمارة على زيد، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليّ عبادالله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر، أخرج، إي عدو الله(209) من رحلي، فلا تصحبني. قال ابن اسحاق: فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك، وقال بعض الناس: لم يزل مُتَّهماً بشرّ حتى هلك(210).

209) السيرة النبوية لابن هشام ،177/4.
210) السيرة النبوية لابن هشام ،177/4.

التحذير من هبوب ريح شديدة :

وفي الطريق أو لما بلغ تبوك ـ على اختلاف الروايات ـ قال رسول اللّه ص: تهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقومن أحد، ومن كان له بعير فليوثق عقاله ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه صاحب له "، ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ص إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجته والأخر في طلب بعيره، فأما الذي خرج لحاجته فانه خنق على مذهبه - أي موضعه - وأما الذي خرج في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طئ ، فاخبر بذلك رسول الله ص فقال: ألم أنهكم عن أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فشفي، وأما الآخر طيئا أهدته لرسول الله - ص - حين رجعإلى المدينة (211).

---

211) أخرجه البخاري، 8 / 125 (4419) ،ومسلم ، 4 / 2286 (38، 39 / 2980، ، وأحمد 2 / 9، 58، 72، 74، 137،113، والبيهقي في الدلائل، 5 / 233، وفي السنن 2 / 451 ، والحميدي، (653) ،وعبد الرزاق، (1625) ،والطبراني في الكبير، 12 / 457 ،وانظر الدر المنثور، 4 / 104.

تكثير ماء عين تبوك:

قال معاذ بن جبل ا: قال رسول الله - ص -: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك(212)، تنبض(213)بشيء من مال، فسألهما رسول الله - ص - هل مستما من مائها شيئاً؟ قالا: نعم، فسبهما النبي - ص - وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله - ص - فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر أو غزير حتى استقى الناس(214).وقد قال رسول الله - ص - لمعاذ بن جبل: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً(215).

---

212) الشراك: هو سير النعل ومعناه ماء قليل جداً.

213) تبعني: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد ومعناه تسيل.

214) صحيح مسلم بشرح النووي، 41/15 ؛ مختصر مسلم، رقم 1530.

215) الجنان : جمع جنة وهي المزارع والبساتين ، أخرجه مسلم 4 / 1784 - 1785 حديث (10 / 706) وأحمد 5 / 238 وابن حبان ذكره الهيثمي في الموارد (549)، والبيهقي في الدلائل 5 / 236 وابن خزيمة (968) ومالك في الموطأ 144، وانظر كنز العمال (35398).

لقد كانت منطقة تبوك والوادي الذي كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء ولكن الله –عز وجل- أجرى على يد رسوله - ق - بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة، ولم يكن هذا آنياً لسد حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله ص بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة ولقد تحقق ما أخبر به الرسول - ص - بعد فترة قليلة من الزمن، ولازالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول وتشهد بأن الرسول لا يتكلم إلا صدقاً ولا يخبر إلا حقاً ولا ينبئ بشيء إلا ويتحقق(216).

تكثير الطعام:

عن أبي هريرة- ا - قال: لمّا كانت غزوة تبوك أصاب النّاس مجاعة قالوا:يا رسول اللّه لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا (217) فأكلنا وادّهنّا (218). فقال رسول اللّه ص: «افعلوا». قال فجاء عمر فقال: يا رسول اللّه إن فعلت قلّ الظّهر (219) ولكن ادعهم بفضل أزوادهم (220) ، ثمّ ادع اللّه لهم عليها بالبركة لعلّ اللّه أن يجعل في ذلك (221)

---

216) الصراع مع الصليبيين، ص142.
217) النواضح: من الإبل التي يستقى عليها.
218) ادّهنّا: أي اتخذنا دهنا من شحومها.
219) الظهر: الدواب.
220) أزوادهم: جمع زاد وهي لا تملأ إنما تملأ بها أوعيتهم.
221) لعلّ الله أن يجعل في ذلك: فيه محذوف تقديره يجعل في ذلك بركة أو خيرا، أو نحو ذلك.

فقال رسول اللّه ص: «نعم». قال: فدعا بنطع (222) فبسطه ثمّ دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرّجل يجيء بكفّ ذرة، قال ويجيء الآخر بكفّ تمر، قال ويجيء الآخر بكسرة، حتّى اجتمع على النّطع من ذلك شيء يسير. قال فدعا رسول اللّه ص عليه بالبركة، ثمّ قال: «خذوا في أوعيتكم» قال: فأخذوا في أوعيتهم حتّى ما تركوا في العسكر وعاء إلّا ملأوه قال فأكلوا حتّى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول اللّه ص: «أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأنّي رسول اللّه، لا يلقى اللّه بهما عبد غير شاكّ فيحجب عن الجنّة(223).ومن هذا الحديث نتعلم :

التربية على الأخذ بالأسباب .

عمق تلك التربية .

222) نطع: هو بساط متخذ من أديم.
223) الحديث في صحيح مسلم في الايمان حديث 45 ، 1 / 56.

المشورة وقبولها .

التراجع عن القرار ليس ضعفاً في القيادة .

كثرة البذل والتضحية مع قلة الإمكانات فكيف بالعكس ؟

أهمية الربط بما يقوي الإيمان رغم حصول ما يستدعي ذلك فكيف في غير هذا الموطن ؟

الإيمان بالمعجزات .

عظم البركة والدعاء بها .

قوة الضبط والتنفيذ في الجيش المسلم .

هذه بعض المعجزات والكرامات التي أظهرها الله على يد رسول الله ص في غزوة تبوك تدل على صدق نبوته ورسالته وتدل على رفعة منزلته وتكريمه عند ربه(224).

224) انظر: الصراع مع الصلبيين، ص141.

أهم نتائج الغزوة:

إسقاط هيبة الروم من نفوس العرب جميعاً مسلمهم وكافرهم على السواء لأن قوة الروم كانت في حس العرب لا تقاوم ولا تُغْلب، ومن ثم فقد فزعوامن ذكر الروم وغزوهم، ولعل ما حدث للمسلمين في غزوة (مؤتة) كان مؤكداً على ما ترسخ في ذهن العربي في جاهليته من أن الروم قوة لا تقهر، فكان لابد من هذا النفير العام لإزاحة هذه الهزيمة النفسية من نفوس العرب.

إظهار قوة الدولة الإسلامية كقوة وحيدة في المنطقة قادرة على تحدي القوى العظمى عالمياً -حينذاك- ليس بدافع عصبي أو عرقي، أو تحقيق أطماع زعامات معاصرة، وإنما بدافع تحريري حيث تدعو الإنسانية إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد ولقد حققت هذه الغزوة الغرض المرجو منها بالرغم من عدم الاشتباك الحربي مع الروم الذين آثروا الفرار شمالاً فحققوا انتصاراً للمسلمين دون قتال، حيث أخلوا مواقعهم للدولة الإسلامية، وترتب على ذلك خضوع النصرانية التي كانت تمت بصلة الولاء لدولة الروم مثل إمارة دومة الجندل، وإمارة إيلة (مدينة العقبة حاليا على خليج العقبة)

وكتب رسول الله - ص - بينه وبينهم كتاباً يحدد مالهم وما عليهم(225) وأصبحت القبائل العربية الشامية الأخرى التي لم تخضع للسيطرة الإسلامية في تبوك تتعرض بشدة للتأثير الإسلامي، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة، ويعد ما حدثفي تبوك نقطة البداية العملية للفتح الإسلامي لبلاد الشام(226)، وإن كانت هناك محاولات قبلها ولكنها لم تكن في قوة التأثير كغزوة تبوك، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عمليات متواصلة لفتح البلدان والتي واصلها خلفاء رسول الله - ص - من بعده، ومما يؤكد هذا أن الرسول ص قبل موته جهّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربه موجّهة صوب الروم، وطليعة لجيش الفتح، ضم هذا الجيش جُلَّ صحابة رسول الله ولكنه لم يقم بمهمته إلا بعد وفاته - ق - ومع هذا فقد حقق الهدف المطلوب منه (227).لقد وضع رسول الله - ص - الأسس الأولى والخطوات المثلى لفتح بلاد الشام والفتوحات الإسلامية.

---

225) الشجاع ، دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، ص209.
226) عبد الرحمن احمد، المسلمون والروم في عصر النبوة، ص120.
227) الشجاع، دراسات في عهد النبوة، ص209.

توحيد الجزيرة العربية تحت حكم الرسول

تأثر موقف القبائل العربية من الرسول - ص - والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة كفتح مكة، وخيبر وغزوة تبوك، فبادر كل قوم بإسلامهم بعد ما امتد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم ثم مصالحة نجرانفي الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية، فلم يعد أمام القبائل العربية إلا المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة ونظراً لكثرة وفود القبائل العربية التي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبي ص من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هي ومن وراءها فقد سُمِّيَ العام التاسع للهجرة في المصادر الإسلامية بعام الوفود(228).

228) موسوعة نظرة النعيم ،395،396/1 .

دروس وعبر من غزوة تبوك:

ولئن انتهت غزوة تبوك ، فما انتهى نورها، و ما انتهت دروسها وعبرها ومواعظها، ففي كل حديث منها قصة، و في كل قصة عظة وعبرة، فهاكم بعض دروسها وعبرها:

أن هذه الأمة أمة جهاد، و مجاهدة، و صبر، ومصابرة، و متى ما تركت الجهاد، ضُربت عليها الذلة والمسكنة .

دعِ المِداد و سطّر بالدَّمِ القاني   و أسكتِ الفَمَ واخطبْ بالفمِ الثَّاني

فَمُ المدافعِ في صدرِ العداة لهُ   منَ الفصاحةِ ما يُذري بسحبانِ

أن الله تعالى، كتب العزة والقوة لهذه الأمة، متى ما صدقت وأخلصت، فها هي دولة الإسلام الناشئة، تقف في وجه الكفر كله بقواه المادية فتهزمه، وتنتصر عليه:

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [سورة الحج:40] .

أنه ما تسلل العدو سابقًا ولاحقًا إلا من خلال الصفوف المنافقة، ولم يكن الضعف والتفرقة في هذه الأمة، إلا من قِبَل أصحاب المسالك الملتوية: لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [سورة التوبة:47]إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في كل شئونها السياسية والعسكرية والاجتماعية... منهج تربوي كريم سار عليه الحبيب المصطفى ص في حياته وقد مارس رسول الله ص في هذه الغزوة الشورى وقبِل مشورة الصدِّيق والفاروق في بعض المواقف التي حدثت في الغزوة ومنها :

قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش لعطش شديد:فقد قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنامنزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرا، فادع الله، قال: «أتحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يردهما حتى حالت السماء فأظلت ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر(229).

229) أخرجه ابن حبان، كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك، رقم 1707.

قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة: فقد أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النبي ص في نحر إبلهم حتى يسدوا جوعتهم، فلما أذن لهم النبي ص في ذلك جاءه عمر - ا - فأبدى مشورته في هذه المسألة، وهيأن الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلهم وهم أحوج ما يكونون إليهافي هذا الطريق الطويل، ثم ذكر - ا - حلا لهذه المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل ق بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام بعد أن ملأوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا.

قبول مشورة عمر - ا - في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة: عندما وصل النبي ص إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فروا خوفًا من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام، فأشار عليه عمر بن الخطاب - ا - بأن يرجع بالجيش إلى المدينة وعلل رأيه بقوله: إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، ولقد كانت مشورة مباركة؛ فإن القتال داخل بلاد الرومان يعد أمرَا صعبَاإذ إنه يتطلب تكتيكًا خاصًا لأن الحرب في الصحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرومان في الشام يقربمن مائتين وخمسين ألفًا، ولا شك في أن تجمع هذا العدد الكبير في تحصنه داخل المدن يعرض جيش المسلمين للخطر(230).

230) غزوة تبوك، باشميل، ص176، 177.

أن مواجهة الأعداء، لا يشترط فيها تكافؤ القوى: يكفي المؤمنين أن يعدُّوا أنفسهم بما استطاعوا من قوة، ثم يثقوا بالله، و يتعلقوا به، ويثبتوا، ويصبروا، وعندها يُنصروا، فها هو سلفهم ابن رواحة يقول:' والله ما نقاتل الناس بعَدد، ولا عُدد، و ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي كرمنا الله به'(231) .فيا أمة الإسلام في كل زمان ومكان اتقوا الله، وأجمعوا أمركم، وذُودواعن دينكم ومحارمكم ؛ فإن من لا يذود عن دينه ومحارمه ولا ينتصر لدينه ذليل حقير، غير حقيق بالعزة ؛ بل لا تحلو له الحياة، اصبروا، وصابروا ورابطوا، و بما تمسك به أسلافكم تمسكوا، جاهدوا كجهادهم، و اصبروا كصبرهم، وتوكلوا على الله، و ثقوا بالله واطمئنوا، و أبشروا، و العاقبة للمتقين : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173) [سورة الصافات:171-173] .

'خذوا إيمان إبراهيم، تنبت لكم في النار جنات النعيم'

وبانتهاء هذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النبي ص التي قادها بنفسه، فقد كانت حياته المباركة غنية بالدروس والعبر التي تتربى عليها أمته في أجيالها المقبلة(232) .

---

231) ابن هشام- السيرة 3/ 435- 442.

232) صادق عرجون ، محمد رسول الله، 460/4 .

بعض الوقائع المهمة في العام التاسع الهجري :

وفاة زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول:

قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله ص على عبد الله بن أبيّ في مرضه نعوده، فقال له النبي ص: "قد كنت أنهاك عن حب يهود"، فقال عبد الله: فقد أبغضهم سعد بن زرارة فمات(233).ولما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ص فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ص ليصلي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله ص فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ص: "إنما خيرني الله فقال:اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [سورة التوبة:80] . وسأزيده على سبعين" قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله ص ، فأنزل الله عز وجل آية: وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ [سورة التوبة:84].

233) أبو داود،كتاب الجنائز،باب في العيادة،رقم 3094.

وإنما صلى عليه رسول الله ص إجراء له على حكم الظاهر وهو الإسلامولما فيه من إكرام ولده عبد الله -وكان من خيار الصحابة وفضلائهم- وهوالذي عرض على النبي أن يقتل أباه لما قال مقالته يوم غزوة بني المصطلق كما بينَّا، ولما فيه من مصلحة شرعية، وهي تأليف قلوب قومه وتابعيه، فقد كان يدين له بالولاء فئة كبيرة من المنافقين، فعسى أن يتأثروا ويرجعوا عن نفاقهم ويعتبروا ويخلصوا لله ولرسوله، ولو لم يجب ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سبة وعارا على ابنه وقومه، فالرسول الكريم اتبع أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهي فانتهى(234).وأما إعطاؤه ق القميص فلأن الغنى به بخل بالكرم، وقد كان من خلق رسول الله ص أنه لا يرد طالب حاجة قط، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس عم الرسول قميصه لما جيء به أسيراً يوم بدر، وكان من خلق رسول الله ص وآل بيته رد الجميل بخير منه(235).وبموت عبد الله بن سلول تراجعت حركة النفاق في المدينة، حتى إننالم نجد لهم حضوراً بارزاً في العام العاشر للهجرة، ولم يبق إلا العدد غير المعروفإلا لصاحب سر رسول الله ص حذيفة بن اليمان(236)، وكان عمر -فيما بعد-لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليه حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، وقد أخبره رسول الله بهم(237).

234) أبو شهبة ، السيرة النبوية ،533/2، 534.
235) صحيح السيرة النبوية، ص621، 622، السيرة لأبي شهبة ، 28534 .
236) الشجاع، دراسات في عهد النبوة، ص221.
237) معين السيرة النبوية، ص464.

كان العام التاسع حاسمًا لحركة النفاق في المجتمع الإسلامي، فقد وصل النظام الإسلامي إلى قوته؛ ومن ثم لا بد من تحديد إطار التعامل مع كل القوى بوضوح، ولهذا عبر الإمام ابن القيم عن خطة الإسلام أمام المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهى أن يصلى عليهم وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم(238).وكان مرض عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، في ليالٍ بقين من شوال، ومات في ذي القعدة من السنة التاسعة(239).

عام الوفود:

كان العام التاسع الهجري في حياة الرسول - ص - مناط الفخر وذروة القوة، ففيه خرج الرسول - ص - إلى تبوك على مشارف الشام، ليلتقي بدولة الروم التي كانت تهدد حدود الجزيرة العربية، فتهيب الروم لقاءه، ولاذوا بالفرار ليتحصنوا داخل بلادهم، فكان هذا النصر الأبيض(240) على دولة الروم العظيمة تطوراً كبيراً وتحولًا عجيباَ يعتز به المسلمون في تاريخهم.

---

238) زاد المعاد ،91/2 .
239) المغازي، تاريخ الإسلام للذهبي، ص659.
240) يعني: الذي تم بدون قتال.

وفيه تتابعت الوفود من سائر الجزيرة العربية لتعلن الولاء والطاعة للرسولق ولتؤمن مستقبلها قبل أن يصل إليها المد الإسلامي ويكتسحها تياره القوي وكانت هذه الوفود في كثرتها وتتابعها حَرِيّة بأن تجعل هذا العام عام الوفود، كما كانت هذه الوفود هي الثمرة الطبيعية لكفاح المسلمين الطويل، لأنها البرهان الواضح على أن صوت الإسلام قد أصبح مسموعًا في كل مكان، وأن الناس حينما سمعوه واطمأنوا إليه لبوا النداء واستجابوا للدعاء(241) ، وأشارت المصادر الحديثية والتاريخية إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخ مبكر عن السنة التاسعة، ولعل ذلك ما أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيدعلى ستين وفدا عند البعض، وليرتفع فيبلغ أكثر من مائة وفد عند آخرين،؟ ولعل البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم (242)، فقد أورد محمد بن إسحاق أنه"لما فتح رسول اللّه ص مكة المكرمة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه" (243).

كان أول الوفود قدوما إلى النبي ص بعد رجوعه من تبوك هو وفد قبيلة ثقيف. وقد سبق أن أشرنا إلى إسلام عروة بن مسعود الثقفي على يدي رسول اللّه ص قبيل وصوله المدينة، عند عودته من مكة بعد الفتح، وذكرنا أن النبي ص أمره أن يرجع إلى قومه بالإسلام،

241) محمد الطيب النجار ، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، 372/1
242) ابن هشام، السيرة، 3/ 599.
243) ابن كثير، البداية والنهاية، 5/ 46- 47.

وقد فعل ذلك فأظهر لهم دينه، ودعاهم إلى الإسلام، غير أنهم اجتمعوا عليه فرموه بسهامهم وهو يؤذن في أعلى داره فقتلوه، ثم ائتمر زعماء ثقيف فيما بينهم فوجدوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من قبائل العرب وقد بايعت وأسلمت» فأجمعوا على أن يرسلوا إلى النبي ص وفدا، ففعلوا وقد حاول الوفد بعد وصوله المدينة تأجيل هدم اللات «الطاغية» بعض الوقت غير أن النبي ص رفض ذلك، وأصر على أن يبعث المغيرة ابن شعبة وأبا سفيان بن حرب لهدمها، كما أنه أمّر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الدين (244).

وبالإضافة إلى أخبار وفد ثقيف الذي كان برئاسة عبد ياليل بن عمرو بن عمير، أورد ابن إسحاق معلومات مبوّبة عن ستة عشر وفدا تضمنت تفصيلات عن رؤساء وفود ورجالها وأخبار قدومهم وإقامتهم، وحوارهم، والأشعار التي قيلت، وما انتهى إليه أمرهم، والآيات التي نزلت في أمرهم إن كان ذلك قد حصل(245).وقد استقصى ابن سعد في جمع المعلومات عن الوفود، كما فصل كثيرا وقدم ترجمات وافية عن رجال الوفود، ومن كانت له صحبة منهم، وما ورد عن طريقهم من آثار. ولا تخلوا أسانيد ابن سعد أحيانا من المطاعن،

244) ابن هشام، السيرة، 3/ 599.
245) ابن هشام، السيرة، 3/ 599.

كما أن فيها أسانيد من الثقاة أيضا، ولا شك في أن الأخبار التي أوردها المؤرخون ليست ثابتة بالنقل الصحيح المعتمد وفق أساليب المحدثين، رغم أن عددا كبيرا من المرويات عن تلك الوفود ثابتة وصحيحة، فمثلا: أشارت سورة الحجرات إلى ما صدر عن بعض رجال وفد تميم من أعمال تتسم بعدم العقلانية (246)، كما أورد الإمام البخاري معلومات عن وفد قبيلة تميم وقدومه إلى النبي ص (247)، وتعززت أخبار هذا الوفد بمعلومات إضافية وردت في مصادر تاريخية إلى جانب ما ورد عنها في كتب السير والمغازي (248).

وسوف نعرض تفاصيل بعض الوفود التي وردت عنها تفاصيل في كتب السيرة والمغازي وكتب الحديث :

246) حكت آيات من سورة الحجرات بعض ما صدر من أفراد وفد تميم من تصرفات تتسم بالبداوة وجفاء الطبع وقلّة الذوق، كالمناداة على النبي ص من وراء الحجرات وبصوت مرتفع بدلا من أن يستأذنوا ويسلموا عليه ق. انظر في ذلك الطبري، التفسير، 26/ 122.

247) فتح الباري، 8/ 83- 102.

248) ابن كثير، البداية، 5/ 40- 98.

وفد عبد القيس :

وقد تحدث ابن عباس ب عن قدومهم فقال: إن وفد عبد القيس أتوا رسول الله ص فقال رسول الله ص: «من الوفد؟» أو «من القوم؟» قالوا: ربيعة قال: «مرحبا بالقوم(249)-أو بالوفد- غير خزايا ولا ندامى» (250). قال: فقالوا: يا رسول الله، إنا نأتيك من شقة بعيدة(251)وإن بيننا وبينك هذا الحيمن كفار مضر، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر فصل(252) نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة، قال: فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع، قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خُمسا من المغنم» ونهاهم عن الدباء(253)والحنتم(254)والمزفت(255) وربما قال النقير(256) أو المقير، وقال: «احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم» (257) وفي رواية: أن الأشج بن عبد القيس تخلف في الركاب حتى أناخها، وجمع متاع القوم،

---

249) مرحبا بالقوم: صادفت رحبا وسعة. .
250) غير خزايا ولا ندامى: معناه لم يكن منكم تأخر عن الإسلام ولا عناد.
251) شقة بعيدة: السفر البعيد، وقيل المسافة البعيدة.
252) الأمر الفصل: البين الواضح الذي ينفصل به المراد.
253) الدباء: القرع اليابس، أي الوعاء فيه.
254) الحنتم: أصح الأقوال فيها: الجرار الخضر وهي جرار كان يحمل فيها الخمر.
255) المزفت: الأوعية التي فيها الزفت.
256) النقير: جذع ينقر وسطه ثم ينبذ فيها الرطب والبسر.
257) البخاري، كتاب الإيمان رقم 53.

ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله ص فقبلها، فقال له النبي ص: «إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله» فقال: جبل جبلت عليه أم تخلقا مني؟ قال: «بل جبل» قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله.وقد انشغل رسول الله ص بمقدمهم وأخر صلاة السنة البعدية بعد الظهر وصلاها بعد العصر(258).

وفد دَوْس :

كانت وفادة هذه القبيلة في أوائل سنة سبع، ورسول اللّه ص بخيبر ، وقد قدمنا حديث إسلام الطُّفَيّل بن عمرو الدوسي، وأنه أسلم ورسول اللّه ص بمكة، ثم رجع إلى قومه، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام، ويبطئون عليه حتى يئس منهم، ورجع إلى رسول اللّه ص ، فطلب منه أن يدعو على دوس، فقال :(اللهم اهد دوساً) (259) . ثم أسلم هؤلاء، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتاً من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع، ورسول اللّه ص بخيبر، فلحق به (260).

258) صحيح السيرة النبوية، ص 631.
259) البخاري، الفتح ،2937 ، ومسلم ، 2524.
260) صحيح السيرة النبوية، ص 216، الرحيق المختوم ، ص 438

رسول فَرْوَة بن عمرو الجُذَامي :

كان فروة قائداً عربياً من قواد الرومان، عاملاً لهم على من يليهممن العرب، وكان منزله مَعَان وما حوله من أرض الشام، أسلم بعد ما رأي من جلاد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة 8 هـ ولما أسلم بعث إلى رسول اللّه ص رسولاً بإسلامه، وأهدي له بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الردة والموت، فاختار الموت على الردة فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له : عفراء، وضربوا عنقه(261) .

وفد صُدَاء :

جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول اللّه ص من الجِعْرَانة سنة 8 هـ ، وذلك أن رسول اللّه ص هيأ بعثاً من أربعمائة من المسلمين، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صُدَاء، وبينما ذلك البعث معسكر بصَدْرِ قَنَاة علم به زياد بن الحارث الصدائي، فجاء إلى رسول اللّه ص فقال : جئتك وافداً على مَنْ ورائي، فاردد الجيش وأنا لك بقومي، فرد الجيش من صدر قناة، وجاء الصدائي إلى قومه فرغبهم في القدوم على رسول اللّه ص ،

261) الروض الأنف،4/ 368، السـيرة الحلبية في سـيرة الأمين المأمون، 263/3، الرحيق المختوم،ص 439

فقدم عليه خمسة عشر رجلاً منهم، وبايعوه على الإسلام، ثم رجعوا إلى قومهم، فدعوهم ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول اللّه ص منهم مائة رجل في حجة الوداع (262).

وفد عُذْرَة :

وقدم على رسول الله ص وفد عذرة في صفر سنة تسع اثنا عشر رجلا فيهم جمرة بن النعمان فقال رسول الله ص من القوم " ؟ فقال متكلمهم من لا تنكره نحن بنو عذرة إخوة قصي لأمه نحن الذين عضدوا قصيا وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر ولنا قرابات وأرحام قال رسول الله ص مرحبا بكم وأهلا ما أعرفني بكم فأسلموا وبشرهم رسول الله ص بفتح الشام وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده ونهاهم رسول الله ص عن سؤال الكاهنة وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية وأقاموا أياماً ثم رجعوا (263).

---

262)عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، 314/2 ، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، 289/2 ، زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 580/3 ، الرحيق المختوم ، ص 440

263) زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 580/3

وفد بَلِي :

قدم على رسول الله ص وفد بلى في ربيع الأول سنة تسع فأنزلهم رويفع بن ثابت البلوى عنده وقدم بهم على رسول الله ص فقال له هؤلاء قومي فقال له رسول الله ص مرحبا بك وبقومك فأسلموا فقال لهم رسول الله ص الحمد لله الذي هداكم للإسلام فكل من مات منكم غلى غير الإسلام فهو في النار.

وقال له أبو الضبيب شيخ الوفد يا رسول الله إن لى رغبة في الضيافة فهل لى في ذلك أجر قال نعم وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة قال يا رسول الله ما وقت الضيافة.قال ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقة.ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك قال يا رسول الله أرأيت الضالة من الغنم أجدها في الفلاة من الأرض قال لك أو لأخيك أو للذئب قال فالبعير قال مالك وله دعه حتى يجده صاحبه، قال رويفع ثم قاموا فرجعوا إلى منزلي فإذا رسول الله ص يأتي منزلي يحمل تمرا فقال استعن بهذا التمر فكانوا يأكلون ومن غيره فأقاموا ثلاثا ثم ودعوا رسول الله ص وأجازهم ورجعوا إلى بلادهم (264).

---

264) عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، 314/2 ، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، 279/2

رسالة ملوك اليمن :

وبعد مرجع النبي ص من تبوك قدم كتاب ملوك حِمْيَر، وهم الحارث بن عبد كُلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، وقَيْلُ ذي رُعَيْن وهَمْدَان ومُعَافِر، ورسولهم إليه ق مالك بن مرة الرّهَاوي، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، وكتب إليهم رسول الله ص كتاباً بَيّنَ فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطي فيه المعاهدين ذمة اللّه وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية وبعث إليهم رجالاً منهم معاذ بن جبل، وأبو موسي الأشعري ب فقد بعث رسول الله - ص - معاذ بن جبل الأنصاري أعلم الصحابة في علم الحلال والحرام إلى اليمن قاضياً ومفقِّهاً، وأميراً، ومصدِّقاً(265)، وجعله على أحد مِخْلافيها(266) وهو الأعلى. ولما خرج معاذ قاصداً اليمن خرج معه رسول الله - ص - يودعه ويوصيه، ومعاذراكب، ورسول الله - ص - يمشي تحت راحلته، فأوصاه بوصايا كثيرة ورسم له منهجاً دعوياً عظيماً حيث قال له: إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله،

265) المصدِّق: آخذ الزكاة.

266) المخلاف: الأقليم والكورة والرستاق.

فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب(267).

وفي هذا إرشاد من النبي - ص - للدعاة إلى الله بالتدرج والبدء بالأهم فالأهم، فالدعوة تكون بترسيخ الإيمان بالله تعالى ورسوله إيماناً يثبت في القلوب ويهيمن على الأفكار والسلوك، ثم تكون الدعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العملية التي ترسخ هذا الإيمان وتنميه، ثم يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات، فيتقبل الناس تكاليف الإسلام التي قد تكون مخالفة لهوى النفس لأن قلوبهم قد عمرت بالإيمان واليقين قبل ذلك(268).ولما فرغ رسول الله - ص - من وصاياه لمعاذ قال له: يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري(269). فبكى معاذ خَشَعاً لفراق الرسول ص. (270).

267) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4347.
268) التاريخ الاسلامي ، 187/8 .
269) صحيح السيرة ، ص654.
270) السيرة النبوية لأبي شهبة ، 559/2 .

وبعث رسول الله - ص - أبا موسى الأشعري اليمني إلى مخلاف اليمن الآخر وهو الأسفل، قاضياً ومفقهاً وأميراً ومصدِّقاً، وأوصاه ومعاذاً فقال: يسِّرا ولا تعسرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا(271).

وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول اللّه ص. أما أبو موسي الأشعري ا فقدم عليه ق في حجة الوداع (272).

وفد ضمامة بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكر:

قال أنس بن مالك ا: بينما نحن جلوس مع النبي - ص - في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم علقه ثم قال لهم: أيكم محمد-والنبيق متكئ بين ظهرانيهم- فقلنا هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب. فقال له النبي - ص -: قد أجبتك فقال الرجل للنبي - ص -: إني أسألك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد(273) علي في نفسك فقال: سلعما بدا لك. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم .

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال:اللهم نعم.

---

271) البخاري، كتاب المغازي ،رقم 4342.

272) سبل الهدى والرشاد،371/11- 373 ، سيرة ابن هشام ، 588/2 ، عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، 295/2 ، الرحيق المختوم ، ص 445

273) تجد: تحقد وتحمل البغضاء.

قال: أنشدك بالله. آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟

قال: اللهم نعم.

قال: أنشدك بالله. آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمهافي فقرائنا؟

فقال النبي - ص -: اللهم نعم.

فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر(274).

وفي رواية ابن عباس: ... حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله - ص - وسأودي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص. قال: ثم انصرف راجعاً إلى بعيره، فقال رسول الله - ص - حين ولى: إن يصدق ذو العقيصتين (275) يدخل الجنة، قال: فأتى إلى بعيره، فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، قالوا: صه يا ضمام اتق البرص والجذام، اتق الجنون. قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله عز وجل قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه.

274) البخاري، كتاب العلم رقم 63.
275) لأنه فرق شعره فرقتين.

وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، قال فو الله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضرة رجل ولا امرأة إلا مسلماً، قال: يقول ابن عباس ب: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة(276).

وفد همدان :

قدموا سنة 9هـ بعد مرجعه قمن تبوك، فكتب لهم رسول اللّه ص كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك بن النَّمَطَ، واستعمله على من أسلم من قومه، فبعث رسول الله - ص - إليهم خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادي سنة عشر، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا قبل منهم، وإن لم يفعلوا قاتلهم، فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه - ق - كما أمره رسول الله ص ثم كتب خالد إلى رسول الله - ص - يعلمه بإسلامهم وأنه مقيم فيهم حتى يكتب إليه رسول الله - ص -،

276) صحيح السيرة النبوية، ص630؛ مسند أحمد ، 264/1 .

فجاءه كتاب رسول الله - ص - يأمره بأن يقبل إلى المدينة ومعه وفد منهم ففعل، فلما قدموا أمر عليهم قيس بن الحصين، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة، ومعالم الإسلام(277).

وقيل : أنه - ص - أرسل علياً بدلاً من خالد وعندما وصل إلى قبائل همدان قرأ عليهم كتاب رسول الله - ص - فأسلمت همدان جميعاً، فكتب علي إلى رسول الله - ص - بإسلامهم فلما قرأ رسول الله - ص - الكتاب خر ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان السلام على همدان(278).

وفد بني فَزَارَة :

قدم هذا الوفد سنة 9هـ بعد مرجعه قمن تبوك، وكانوا بضعة عشر رجلا فيهم خارجة بن حصن ، والحر بن قيس وهو أصغرهم ، ابن أخي عيينة بن حصن فنزلوا في دار رملة بنت الحارث من الأنصار ، وقدموا على إبل صغار عجاف وهم مسنتون ، فأتوا رسول الله ص مقرين بالإسلام ، فسألهم رسول الله ص عن بلادهم ،

---

277)السيرة لابن هشام ،250/4.

278)البخاري، كتاب المغازي ، رقم 4349. عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، 299/2 ، الكلاعي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، 300/2 ، زاد المعاد في هَدْي خير العباد، 539/3 ، الرحيق المختوم ، ص446

فقالوا : يا رسول الله ، أسنتت بلادنا ، وأجدب جنابنا ، وحربت عيالنا ، وهلكت مواشينا ، فادع ربك أن يغيثنا (279) ، وتشفع لنا إلى ربك ويشفع ربك إليك ، فقال رسول الله ص: « سبحان الله ، ويلك ، أنا شفعت إلى ربيفمن ذا الذي يشفع ربنا إليه ، لا إله إلا الله العظيم وسع كرسيه السموات والأرض وهو يئط (280) من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد » . وقال رسول الله ص: « إن الله ليضحك من شعثكم وأذاكم وقرب غياثكم » ، فقال الأعرابي : أو يضحك ربنا يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، فقال الأعرابي : لن نعدم يا رسول الله من رب يضحك خيرا ، فضحك رسول الله ص من قوله ، فقام رسول الله ص فصعد المنبر وتكلم بكلمات ، ورفع يديه وكان رسول الله ص لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء (281)، فرفع يديه حتى رئي بياض إبطيه وكان مما حفظ من دعائه : اللهم اسق بلدك وبهيمتك ، وانشر رحمتك ،وأحي بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا (282) مريعا (283) ، طبقا (284)

279)الغيث : المطر الخاص بالخير
280) يئط : يخرج صوتا.
281) الاستسقاء : طلب نزول المطر بالتوجه إلى الله بالدعاء.
282) مريئا : محمود العاقبة لا ضرر فيه.
283) المريع : المُخْصِبُ الناجع.
284) طبقا : مالئا للأرض مغطيا لها.

واسعا ، عاجلا غير آجل، نافعا غير ضار ، اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب ، ولا هدم ولا غرق ولا محق (285) اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء « ، فقام أبو لبابة بن عبد المنذر ، فقال : يا رسول الله إن التمر في المرابد ، فقال رسول الله ص: اللهم اسقنا » ، فقال أبو لبابة : التمر في المرابد ثلاث مرات ، فقال رسول الله ص: « اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عريانا يسد ثعلب مربده بإزاره (286)» ، قال : فلا والله ما في السماء من قزعة (287) ولا سحاب وما بين المسجد وسلع من بناء ولا دار ، فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس (288)، فلما توسطت السماء انتشرت وهم ينظرون ثم أمطرت فو الله ما رأوا الشمس ستا ، وقام أبو لبابة عريانا يسد ثعلب مربده بإزاره لئلا يخرج التمر منه ، فقال الرجل : يا رسول الله - يعني الذي سأله أن يستسقي لهم – هلكت الأموال ، وانقطعت السبل (289)

285) المَحْق : النَقْص والمَحْو والإبْطال.
286) الإزار : ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.
287) القزع : قِطَع السَّحاب المُتَفَرقة.
288) الترس : الدرع الذي يحمي المقاتل ويتقي به ضربات العدو.
289) السبل : الطرق.

فصعد رسول الله ص المنبر فدعا ورفع يديه مدا (290) حتى رئي بياض إبطيه ، ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، على الآكام والظراب وبطون(291) الأودية ومنابت الشجر ، فانجابت (292) السحابة عن المدينة كانجياب الثوب(293).

وفد نجران :

كتب رسول الله - ص - إلى نجران(294)كتاباً قال فيه: أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية. فإن أبيتم آذنتكم بحرب. والسلام(295).فلما أتى الأسقف الكتاب، جمع الناس وقرأه عليهم، وسألهم عن الرأي فيه؟ فقرروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكون من أربعة عشر من أشرافهم، وقيل ستين راكباً، منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذين يصدرون عن رأيه، والسيد وهو صاحب رحلتهم، وأبو الحارث أسقفهم، وحبرهم وصاحب مدارسهم، فقدموا على النبي - ص -

---

290) مَدًّا : بسطا زائدا.
291) بطن الوادي : وسطه وهو الموضع المنخفض مسيل المياه والأمطار.
292) انجاب : انْجَمَع وتَقَبَّض بَعْضُه إلى بعض وانْكَشَف عنها.
293) عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، 305/2 ، الكلاعي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، 274/2 ، زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 569/3.
294) نجران بلد كبير على سبع مراحل من مكة الى جهة اليمن.
295) البداية والنهاية ،48/5.

فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحِبَرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذهب، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله - ص -: دعوهم. ثم أتوا النبيق ، فأعرض عنهم، ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان: من أجل زيّكم هذا، فانصرفوا يومهم هذا، ثم غدَوا عليه بزي الرهبان فسلّموا عليه، فردّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال النبي - ص - : يمنعكم من الإسلام ثلاث:عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً(296) وكثر الجدال والحجاج بينه وبينهم، والنبي يتلو عليهم القرآن ويقرع باطلهم بالحجة وكان مما قالوه لرسول الله - ص -: مالك تشتم صاحبنا وتقول أنه عبد الله، فقال: أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب فإن كنت صادقاً فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الرد عليهم قوله سبحانه: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (60) [سورة آل عمران:59،60].

---

296) السيرة النبوية لأبي شهبة ، 547/2 .

فكانت حجة دامغة شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه(297) فلما لم تجد معهم المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة دعاهم إلى المباهلة، امتثالاً لقوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61) [سورة آل عمران:61].

وخرج النبي - ص - ومعه علي، والحسن، والحسين، وفاطمة وقال:" وإذا أنا دعوت فأمِّنوا" فائتمروا فيما بينهم، فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حقاً، وأنه ما بأهل قوم نبياً إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر(298)، ولما عزموا على الرجوع إلى بلادهم قالوا للنبي - ص -: ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منهم مال الصلح، فقال لهم: لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ص فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال: هذا أمين هذه الأمة(299).

297) زاد المعاد ، 633/3 ؛ السيرة النبوية لأبي شهبة ، 547/2 .
298) السيرة النبوية لأبي شهبة ،547/2.
299) البخاري، كتاب فضائل الصحابة رقم 3745.

وفد بني حنيفة :

وقدم على رسول الله ـ ص ـ وفد بني حنيفة، فيهم مسيلمة الكذّاب، سنة9 هـ وكانوا سبعة عشر رجلاً فأتوه وخلفوا مسيلمة في رحالهم، فلمّا أسلموا ذكروا مكانه، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا يحفظها لنا. فأمر له بمثل ما أمر به للقوم، وقال:"أمّا إنّه ليس بشرَكم مكاناً". يعني: لحفظه ضّيعة أصحابه، ثم انصرفوا، فلمّا انتهوا إلى اليمامة، ارتدّ عدوّ الله وتنبّأ، وقال: إنّي أُشْرِكت في الأمر معه. وقال للوفد: ألم يقل لكم: "أمّا إنّه ليس بشرّكم مكاناً؟"ما ذاك إلاّ لما كان يعلم أنّي أشركت في الأمر معه. ثم جعل يسجع لهم السّجعات ، مضاهاة للقرآن، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ـ ص ـ بالنبوّة. وكتب لرسول الله ـ ص ـ من مسيلمة رسول الله إلى محمّد رسول الله، فأمّا بعد؛ فإنّي أشركت في الأمر معك. وإنّ لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكنّ قريشاً قوم لا يعدلون. فكتب إليه رسول الله ـ ص ـ:" من محمّدٍ رسول الله، إلى مسيلمة الكذّاب السّلام على مَن اتّبع الهدى. أمّا بعد؛ فإنّ الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين".

وقال للرجلين الذين أتيا بكتابه: ما تقولان أنتما؟ فقالا: نقول كما قال. فقال: " أمّا والله، لولا أنّ الرّسل لا تقتل، لضربت رقابكما " وذلك في آخر سنة عشر(300).

وكان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر، وقتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق ا في ربيع الأول سنة 21هـ قتله وَحْشِي قاتل حمزة (301).

وفد بني عامر بن صَعْصَعَة :

كان فيهم عامر بن الطُّفَيْل عدو اللّه وأرْبَد بن قيس ـ أخو لَبِيد لأمه ـ وخالد بن جعفر، وجَبّار بن أسلم، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم، وكان عامر هوالذي غدر بأصحاب بئر مَعُونة، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تآمر عامر وأربد، واتفقا على الفتك بالنبي ص ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبي ص ودار أربد خلفه، واخترط سيفه شبراً، ثم حبس اللّه يده فلم يقدر على سله، وعصم اللّه نبيه، ودعا عليهما النبي ص ، فلما رجعا أرسل اللّه على أربد وجمله صاعقة فأحرقته، وأما عامر فنزل على امرأة سَلُولِيّة، فأصيب بغُدَّةٍ في عنقه فمات وهو يقول : أغدة كغدة البعير، وموتا في بيت السلولية .

---

300) عيون الاثر في فنون المغازي والشـمائل والسـير ، 283/2 ، الكلاعي ، الاكتفاء بما تضـمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، 300/2، زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 533/3

301) البداية والنهاية، 6/ 268 ، الديار بكري ، تاريخ الخميس، 2 / 160.

وروي : أن عامراً أتي النبي ص فقال : أُخَيِّرُكَ بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السَّهْلِ ولي أهل المَدَرَ، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغَطَفَان بألف أشقر وألف شقراء، فطعن في بيت امرأة، فقال : أغدة كغدة البعير، في بيت امرأة من بني فلان ! ايتوني بفرسي، فركب، فمات على فرسه (302).

وفد تُجِيب :

وقدم على رسول الله ص وفد تجيب وهم مكون من ثلاثة عشر رجلا قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم فسر رسول الله ص بهم وأكرم منزلهم وقالوا يا رسول الله سقنا اليك حق الله في أموالنا فقال رسول الله ص ردوها فاقسموها على فقرائكم قالوا يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا.

فقال أبو بكر يا رسول الله ما وفد علينا وفد من العرب مثل ما وفد به هذا الحي من تجيب. فقال رسول الله ص إن الهدى بيد الله عز وجل فمن أراد به خيرا شرح صدره للإيمان وسألوا رسول الله ص أشياء فكتب لهم بها وجعلوا يسألونهعن القرآن والسنن

302)عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، 277/2 ، الكلاعي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، 267/2، البداية والنهاية ، 68/5 ، الرحيق المختوم ، ص 450

فازداد رسول الله ص فيهم رغبة وأمر بلالا أن يحسن ضيافتهم فأقاموا أياما ولم يطلبوا اللبث فقيل لهم ما يعجلكم فقالوا نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ص وكلامنا إياه وما رد علينا.

ثم جاؤوا إلى رسول الله ص يودعونه فأرسل إليهم بلالا فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود قال هي بقى منكم أحد قالوا غلام خلفناه على رحالنا هو أحدثنا سنا قال فأرسلوه الينا فلما رجعوا إلى رحالهم قالوا للغلام انطلق إلى رسول الله ص فاقض حاجتك منه فانا قد قضينا حوائجنا منه وودعناه فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله ص فقال : إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي وإن كانوا قدموا راغبين في الإسلام وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم وإني والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى وأن يرحمني وأن يجعل غناى في قلبي فقال رسول الله ص وأقبل إلى الغلام اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه.ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه . فكان أقنع الناس، وثبتفي الردة على الإسلام، وذكر قومه ووعظهم فثبتوا عليه، والتقي أهل الوفد بالنبي ص مرة أخري في حجة الوداع سنة 10 هـ (303).

---

303)عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير،302/2،الكلاعي الأندلسي،الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ،269/2، البداية والنهاية ، 108/5، الرحيق المختوم ، ص 450

وفد طيَئ :

عن ابن إسحاق ، قال : قدم على رسول الله ص وفد طيئ فيهم : زيد الخيل فلما انتهوا إليه كلموه وعرض عليهم رسول الله ص الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم ، فقال رسول الله ص: » ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال لي فيه إلا ما كان من زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كلما كان فيه « ثم سماه زيد الخير ، وقطع له كذا وكذا وأرضين معه ، وكتب له بذلك كتابا فخرج من عند رسول الله ص راجعاً إلى قومه ، فقال رسول الله ص:» إن ينج زيد من حمى المدينة فإنه « يقال قد سماها رسول الله ص باسم غير الحمى وغير أم ملدم ، فلم يثبته ، فلما انتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه ، يقال له : قردة أصابته الحمى فمات بها ، فلما مات عمدت امرأته إلى ما كان من كتب معه فحرقتها بالنار (304) .وقد أورد الإمام مسلم أخبارا عن أغلب الوفود المذكورة آنفاً (305)، كما أوردت بقية الكتب الستة معلومات أوسع شملت عددا كبيرا من الوفود .. وذلك كله يقطع بقدوم الوفود في العام التاسع إلى المدينة لإعلان إسلام قبائلهم وانضمامهم إلى دولة الإسلام وخضوعهم لها،

304) سيرة ابن هشام ، 577/2 ، دلائل النبوة للبيهقي ،431/5.

305) ورد فيها معلومات واســـعة عن الوفود مثل وفد كندة، رســـول ملوك حمير، قدوم جرير بن عبد الله البجلي، وفد حضـرموت، وفد بني المنتفق، وفد صـداء، وفد عبد الرحمن بن أبي عقيل مع قومه، وفد بكر، وفادة طارق عبد الله وقومه ....

حتى توحدت جزيرة العرب عامة تحت حكم النبي ص ، وتبقى مسألة الحاجة الماسة إلى نقد تاريخي لمتون الأخبار المفصلة التي وصلتنا عن الوفود، كما تحتاج القصائد المطولة التي ملئت بها الكتب التاريخية وكتب السيرة والمغازي إلى النقد الأدبي الدقيق، والتأكد من صحة نسبتها(306).

والحقيقة أن تَتَابُع هذه الوفود يدل على مدي ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام، وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائهاوأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال، حتى لم تكن تري محيصاً عن الاستسلام أمامها، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب، لا يمكن صرف النظر عنها، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم ؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لسادتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد عما تأصل فيها من الميل إلى الغارات، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب .

306) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، 1 /398

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98)[سورة التوبة:97،98].

وأثنى على آخرين منهم فقال : وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (99) [سورة التوبة:99].أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف، وكثير من اليمن والبحرين، فقد كان الإسلام فيهم قوياً، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين (307).وما حققه الرسول ص لم يكن رسوما لوحدة صورية شكلية، بل مثّل امتزاجا فريدا لسلوك الإنسان وروحه وعقله مما هيأ الأساس المتين لامتداد وتطور الدولة الإسلامية التي استمرت في عطائها خلال القرون التالية(308).

307 الرحيق المختوم ، ص 452
308) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، 1 /398

سرية جرير بن عبد الله الجبلي إلى ذي الخلصة:

وكان من نتائج حركة الوفود التي شهدها العام التاسع من الهجرة أن بدأت حملة توعية واسعة النطاق في المناطق النائية التي تحتاج إلى ذلك، فقد كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها وتنضوي تحت سيادة الدولة الإسلامية ويتعلمون ما شاء الله أن يتعلموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم، وكان ق يرسل معهم من يعلمهم دينهم، وشرع - ق - يبعث دعاته في شتى الجهات واهتم بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن لتعليمها مبادئ الإسلام وأحكامه فقد انتشر أمر الإسلام في الجزيرة ومختلف أطرافها، وأصبحت الحاجة داعيةإلى معلمين ودعاة ومرشدين يشرحون للناس حقائق الإسلام لكي تتطهر قلوبهم وتشفى صدورهم من أمراض الجاهلية وأدرانها الخبيثة (309) فقد ثبت إرسال النبيه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن كلا منهما إلى جهة (310)، كما بعث النبي ص سرية من مائة وخمسين راكبا عليهم جرير بن عبد اللّه البجلي فكسروا الصنم ذا الخلصة في الكعبة اليمانية وقتلوا من كان عنده، فدعا لهم الرسول ص وكان من تفصيلها ، أن جرير بن عبد الله قال: قال لي رسول الله ص:ألا تريحني من ذي الخلصة؟

---

309) فقه السيرة للبوطي، ص322.

310) سبق الحديث عن تفاصيل ذلك عند الحديث عن عام الوفود....فليراجع .

فقلت: بلى، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنبي ص فضرب يده على صْدري حتى رأيت أثر يده في صدري فقال: اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً. قال: فما وقعت عن فرسي بعد، قال وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخشعم وبجيلة، فيه نصب يقال له: الكعبة، قال: فأتاها فحرّقها بالنار وكسرها، قال: ولمّا قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام فقيل له إن رسول الله - ص - هاهنا فإن قدر عليك ضرب عنقك قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنها ولتشهدوا أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنقك قال: فكسرها وشهد ثم بعث جرير رجُلاً من أحمس يُكنى أبا أرطاة إلى النبي ص يبشره بذلك فلّما أتى النبي ص قال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب قال: فبرّك النبي ص على خيل أحمس ورجالها خمس مرّات (311) .

311) البخاري، المغازي ، 132/5، رقم 4357.

حج أبي بكر بالناس:

كان النبي ص قد اعتمر بعد الفراغ من حصار الطائف حيث أهلّ بالعمرة من الجعرانة، ثم عاد بالجيش إلى المدينة، وقد حج المسلمون والمشركون معا عام الفتح، ثم أمّر أبا بكر (ا) على الحج في العام التاسع الهجري، فخرجفي ذي الحجة إلى مكة ومعه عدد كبير من الصحابة (312)، وساقوا معهم الهدي (313).

فلما خرج الصديق بركب الحجيج نزلت سورة براءة، فدعا النبي ص علياًا وأمره أن يلحق بأبي بكر الصديق، فخرج على ناقة رسول الله ص: العضباء حتى أدرك الصديق أبا بكر بذي الحليفة، فلما رآه الصديق قال له: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم سارا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهمالتي كانوا عليها في الجاهلية، وكان الحج في هذا العام في ذي الحجة كما دلتعلى ذلك الروايات الصحيحة لا في شهر ذي القعدة كما قيل، وقد خطب الصديق قبل التروية،ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول فكان يعرف الناس مناسكهم: في وقوفهم وإفاضتهم، ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات ... الخ

312) ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 168 ،ابن حجر، فتح الباري، 8/ 82.
313) ابن حجر، فتح الباري، 8/ 82.

وعلي يخلفه في كل موقف من هذه المواقف، فيقرأ على الناس صدر سورة براءة ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج بعد العام مشرك(314).وقد أمر الصدِّيق أبا هريرة في رهط آخر من الصحابة لمساعدة علي بن أبي طالب في إنجاز مهمته(315).إن نزول صدر سورة براءة يمثل مفاصلة نهائية مع الوثنية، وأتباعها، حيث منعت حجهم وأعلنت الحرب عليهم(316). قال تعالى: بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3) [سورة التوبة:1-3]. وقد أمهل المعاهدون لأجل معلوم منهم إلى انتهاء مدتهم

---

314) صحيح السيرة النبوية ، ص625.
315) السيرة النبوية لأبي شهبة ،537/2.
316) أنظر :موسوعة نظرة النعيم ،399/1.

فقال تعالى: إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4) [سورة التوبة:4].

كما أمهل من لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم، حيث يصبحون بعدها في حالة حرب مع المسلمين قال تعالى: فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5)[سورة التوبة:5].وقد كلف النبي ص علياً بإعلان نقض العهود على مسامع المشركينفي موسم الحج مراعات لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاة للإسلام فلذلك تدارك النبي ص الأمر وأرسل علياً بذلك فهذا هو السبب في تكليف علي بتبليغ صدر سورة براءة لا ما زعمته الرافضة من أن ذلك للإشارة إلى أن علياً أحق بالخلافة من أبي بكر

وقد علق على ذلك الدكتور محمد أبو شهبة فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصديق له: أمير أم مأمور(317)؟ وكيف يكون المأمور أحق بالخلافة من الأمير.وقد كانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع (318) .

لقد أعلن في حجة أبي بكر أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا يستجيبوا لشرع الله تعالى، فبعد هذا الإعلانالذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة، أيقنت تلك القبائل أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلاً فأخذت ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولهافي التوحيد(319).

---

317) صحيح السيرة النبوية ، ص624.
318) السيرة النبوية لأبي شهبة ،540/2 .
319) قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص283.